

الفصل الرابع

منحبات من آثار جمال الدين الأفغانى

١ - فى ميدان الدين

الأديان الثلاثة

يبحث جمال الدين فى هذا المقال فى شؤون الإنسان ، وينظر إليها نظرة العالم المتبحر ، ثم يعرض فى هذا السبيل من الآراء ما لا يصدر إلا عن ذهن ثاقب وعلم واسع نياض .

قال : أولُ نظرةٍ نظرتُها إلى الكَوْنِ وأحْفَقْتُ فيها ، أنى وضَعْتُ الكُرَّةَ الأَرْضِيَّةَ بين يديّ ، وقِسْتُها ببعض الأَحْرَامِ ، فرَأَيْتُ منها ما يكْبُرُ الأَرْضَ بمئاتِ المِلايينِ من المِراتِ ، ثُمَّ تَمَعَنْتُ فيما حَوَتْهُ من الحَيَوَانِ النَّاطِقِ (الإنسان) فَوَجَدْتُهُ لا يتجاوِزُ الأَلْفَ وخمَسَمِئَةَ مليونِ تَقريباً ، وهو مَقْدَارٌ زهيدٌ بالنسبَةِ لسطحِ الأَرْضِ .

ثُمَّ افترضْتُ ذلكَ الجِزْمَ الذى يكْبُرُ عن الأَرْضِ بمِئَتَيْ مليونِ مرَّةٍ ، وأنَّ الرَّجُلَ هناكَ يعيشُ أَلْفَ سَنَةٍ - وأنَّ ذلكَ الرَّجُلَ صاحِبُ أراضٍ واسعةٍ فيه - وخيَّلَ إلى أَنه يملكُ من الأراضى ما مساحتُها مساحةُ الكُرَّةِ الأَرْضِيَّةِ - وأنَّ أولادَهُ وأحفادَهُ ، من الممكنِ أن يبلغَ عددهم - إذا ازدَوَجَ بمئاتِ من النساءِ مع طولِ العُمُرِ - عددَ أَهْلِ الأَرْضِ هذه أو ما يزيدُ ! فإذا صحَّ معَ هذا الخيالِ أن تكونَ الأَرْضُ بِرَمْتِها ملكاً لرجلٍ فى قريةٍ من جِزْمِ المِريخِ مثلاً ونَسَلُهُ عَدَدَ أَهْلِ الأَرْضِ - فهل يكونُ بين أَهْلِ تلكَ القريةِ الذين هم أبناءُ رجلٍ واحدٍ - مثلُ ما هم عليه أَهْلُ هذه الكُرَّةِ من الاختلافاتِ ؟

أجانبى الخيال : كلاً ، بل يكونُ كلُّ أهل القرية آمينَ مطمئنين ، لا تحاسدَ بينهم ولا هم يحزنون ، يغرسونَ ويزرعونَ ، ويسجنونَ فيما كلون . لا يعرفونَ للحربِ معنى ، إذ لا ملكَ عليهم ، وليسَ بينهم أولو مطامع ، ملك شاسعٌ واسع ، وخيراتٌ ممّا يشتهون ، يعبدون مع أبيهم صاحبَ القرية ، إلهاً واحداً خالقَ الكلِّ ومُبدِعَ الكائنات .

ثم رجعتُ لأهلِ جرمِ الأرض ، وبحثتُ في أهمّ ما فيه يختلفون ! فوجدته (الدين) فأخذتُ الأديانَ الثلاثة : وبحثتُ فيها بحثاً دقيقاً مجرداً عن كلِّ تقليد ، منصرفاً عن كلِّ تقيّد ، مطلقاً للعقلِ لسراحته .

فوجدتُ بعد كلِّ بحثٍ وتنقيبٍ وإمعان : أن الأديانَ الثلاثة ، الموسوية ، والعیسوية ، والمحمدية ، على تمام الاتفاقِ في المبدأ والغاية .

وإذا نقصَ في الواحدةِ شيء من أوامر الخیر المطلق ، استكملتهُ الثانية .

وإذا تقادمَ العهدُ على الخلق ، وتمادوا في الطغيان ، أو أساءت الكهّانُ فهّمَ النَّامُوسُ أو نقصوا من جوهريه أتاها رسولٌ بأرفادٍ وتأييد ، فأكملَ لهم ما نقصوه ، وأتمّ بذاتيه ما أهملوه .

وعلى هذا لاحَ لى بارقُ أملٍ كبيرٍ — أن يتّحدَ أهلُ الأديانِ الثلاثة ، مثلَ ما اتحدتِ الأديانُ في جوهريها وأصلها وغايتها — وأنّ بهذا الاتحادِ يكونُ البشرُ قد خطا نحو السلامِ خطوةً كبيرةً في هذه الحياةِ القصيرة .

وأخذتُ أضعُ لنظرتي هذه خططاً ، وأخطُ أسطراً ، وأحبرُ رسائلَ الدعوة — كلَّ ذلك وأنا لم أخالط أهلَ الأديانِ كلَّهم عن قُربٍ وكتبَ — ولا تعمّقتُ في أسبابِ اختلافِ — حتى أهلِ الدينِ الواحدِ — وتفرّقتهم فرّقاً ، وشيعاً وطوائف !

ولكن لما علمتُ أنّ دونَ اتحادِ أهلِ الأديانِ ، تلك الهواتِ العميقة

وأولئك المرازبة الذين جعلوا كلَّ فرقة بمتزلة (حانوت) وكلَّ طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة ، ورأس مال تلك التجارات ، ما أحدثوه من الاختلافات الدينية ، والطائفية والمذهبية ، على حدِّ قول الشاعر :

قد يفتتحُ المرءُ حانوتًا لمتجرهِ وقد فتحتَ لك الحانوتَ في الدينِ
صيرتَ دينكَ شاهينا تصيدُ به وليسَ تفلحُ أصحابُ الشواهينِ

علمتُ أن أيَّ رجلٍ يجسرُ على مقاومة التفرقة ، ويندُ الاختلاف ، وإثارة أفكار الخلق ، بلزوم الائتلاف ، رجوعاً إلى أصول الدين الحقّة - فذلك الرجل ، هو هو يكون عندهم ، قاطعُ أرزاق المتجّرين في الدين - وهو هو في عرفهم ، الكافرُ الجاحِد ، المارق ، المخردق ، المهترق ، المفرق الخ .

ولمّا انتهى بي العلمُ إلى ذلك الحدِّ ، انقلبتُ أفراحي بالخيال أتراحاً ، ورجعتُ عن نظريتي ، والخبيةُ ملء إهابي وجبتي .

ثم جمعتُ ما تفرّق من الفكر ولمت شعنتُ التصور ، ونظرتُ إلى الشرق وأهله ، فاستوقفني الأفغان - وهي أولُ أرضٍ ممسَّ جسمي ترابها - ثمّ الهند وفيها تنقّف عقلي - فإيران بحكم الحوار والرّوابط ، وإليها كنتُ صرّفتُ بعضَ هممتي ، فجزيرة العرب من حجاز مهبطِ الوحي ، ومشرقِ أنوار الحضارة - ومن يمن وتباعتها وأقال حِميرَ فيها - ونجد ، وعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها - والشام ودهاة الأمويين فيها - والأندلس وحمراؤها ، وهكذا كلَّ صقّع ودولة من دولِ الإسلام في الشرق وما آل إليه أمرهم فيه اليوم .

« فالشرق ! الشرق ! وقد خصصتُ جهازَ دماغِي لتشخيصِ دائه وتحرّى دوائه - فوجدتُ أفتتلَّ أدوائه - وما يعترضُ في سبيلِ توحيدِ الكلمة فيه - داءٌ انقسام أهليه وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا ولا تقومُ على هذا لقومٍ قائمةٌ » .

* * *

الناسُ تجاه الأديان الثلاثة - الموسوية واليسوية والمحمدية وكتبها - لا بُدَّ

أن يكونوا أحدَ رجلَيْنِ - إمّا رجلٌ يعتقدُ أنّ رجالَ الأديانِ الثلاثة قد أرسلتهم الله وأوحى إليهم بالتوراة والإنجيلِ والقرآن - والقصدُ من إرسالهم ، إرشادُ الخلقِ إلى الحقِّ ، وهدايتهم إلى الصراطِ المستقيمِ في الأمورِ التعبديّة - ومن بيانِ الحلالِ والحرامِ ، وصونِ مصالحِ العبادِ بما شرّعه لهم من الشريعة ، وإلزامهم العملَ بها - وبالإجمال - بيانِ مشيئةِ الله بما يريدُه من خلقه ، وما يريدُه أن تكونَ خليقته عليه .

وعلى هذا فلا يمكنُ أن يكونَ قصدُ الله إلّا واحداً ، ومشيئته إلّا واحدة - وكتب الوحي ، وما أنزلته على الرُّسُل - لا بُدَّ أن تكونَ متفقة في المقصدِ والغاية ، ولا يصحُّ التباينُ في جوهرها ، ولا أن يخالف بعضها بعضاً .
فلننظرُ إلى الأمرِ الرئيسي الذي جاء في التوراة من أمرِ العبادة ، وما أرادَه اللهُ من عباده هناك - فزى أنّ الله قد نادى موسى من جانبِ الطُورِ وكلمه قائلاً :

« إني أنا الله لا ربَّ سواي فاعبُدني أنتَ وبنى إسرائيل »

ومختصراً ما ورد فيها أنّ طاعةَ الله وعبادته ، والعملَ بما يبلّغه الرُّسُول - كل ذلك له في الآخرةِ ثوابٌ وسعادةٌ سرمديّة - فضلاً عن عاجلةِ الدنيا .
والإنسانِ يسوقُ الحبَّ الذي لا يريدُ ولا يحبُّ أن يعتقد أنه سيذهبُ سدى - بعد الموت - لأنّ الاعتقادَ بذلك مزعجٌ للنفسِ ، مقبضٌ للروح ، فهو يرجو بعد الفناء الظاهريّ ، أن يُبعثَ ويكونَ له معادٌ ، وأن يحيا حياةً أبديةً .

- ثمّ لننظر ما جاء في الإنجيل - وما قاله المسيحُ فزى أنّه قال بما معناه :

« أعطيتني سلطاناً على كلِّ جسدٍ لأعطي حياةً أبديةً لكلِّ من أعطيتني :

وهذه الحياةُ الأبديةُ - أن يعرفوك أنت الإله الحقيقيّ وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته (١) » .

فالعيسويّة هي ناموسٌ جاءَ متممًا مكتملاً لما قبله من التوراة - كما قال المسيح .

« جئتُ لأتم الناموس لا لأنقضه » « إلخ

ثم إذا نظرنا إلى المحمدية - نرى القرآنَ مشحونًا بتوحيدِ الله ، ولزومِ طاعته وعبادته ، بقوله « وما خلقت الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون - قل إنما أمرتُ أن أعبدَ اللهَ ولا أشركَ به - والحمد لله ربَّ العالمين - إياك نعبدُ وإياك نستعين .. »

هكذا نرى الأديانَ الثلاثةَ متفقةً في الأمورِ التعبديةِ بلا أدنى تباينٍ أو تخالف .

ثم نُنظرُ في المعاملات ، وما أجزئ منها في تلك الأديان ، وما نهى عنه فيها ، نرى أن ما جاءَ به موسى ، أو ما أمره الله به من الوصايا قد عمل بها المسيح ولم ينقص أو ينقص منها شيئاً .

وكذلك محمد - فإنه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل .

- قلنا - إنَّ الناسَ تجاهَ الأديانِ الثلاثةِ وكُتِبَها - أحدَ رجلين : رجلٌ يعتقد بالوحي ، ويؤمنُ بالأنبياء والرسل - ورجلٌ يحدُّ الوحي ، ولا يؤمنُ بالأنبياء ولا بإرسالهم من عند الله .

أما الرجلُ المؤمنُ - فقد بحث ودقق ، وطبَّقَ كلَّ الأديانِ الثلاثةِ بعضها على بعض - كما مرَّ - فلم يجد فيها أيَّ تباينٍ - بل وجدها متفقةً في المقصد والغاية .

وأما الرجلُ الكافر ، ومنكر الوحي - فيقول : إنَّ الكونَ مع حوادثه من حيث حقيقتُهُما ليس فيهما شيءٌ جديد .

وما نراه جديداً فإنما هو في شكل الإبراز ، وصورة الإلقاء والتلقي ، فيأتى في قرن من القرون أو لو بصيرة ولبّ ودهاء ، فيعلمون تعليماً بشكل خاص ، وصور معلومة عندهم - تأخذُ من نفوس الخلق كلَّ ما أخذ ، ويتعبدُ لها

إذا وضعت في شكل تعبدى ، أو يعمل بها إذا أفرغت في قالب تعليمي .
 فالتعليمُ بتوحيدِ الله وتقديسه معروفٌ عند قدماء المصريين قبل موسى بأجيال .
والثالثُ من تعاليم الوثنيين ! وقد قالَ به فيثاغورس الفيلسوف اليوناني قبل
 المسيحِ بخمسةِ عامٍ ! وإنَّ موسى وعيسى ومحمدًا ، هم رجالٌ عقلاءُ حُكماءُ
 امتازوا عن وسطهم ، وجمعوا من معتقداتِ الأقدمين - قواعد وأقوالاً - وضعوها
 في كتب - لا تُعقلُ أن تكونَ من إله السماء !

ويقولُ ذلك المنكرُ : إنه لو سلمنا أن في كتب الأديان شيئاً من النفع ،
 فهو لا يوازي مضاراً ما نراه بين أهل الدينِ نفسه ، والأديان من الاختلافِ
 والتنافرِ ، والمشاحنة والبغضاء ! ولو كانت من الإله حقيقةً - لجعلهم أن يتفقوا
 عليها ولا يختلفوا - ثم يستحيل أن يكون فيها ما يرى من الخرافات !

- هذا غايةُ ما عند الجاحدِ المنكر من القول والحجاج ، والمطلوب منه في
 موضوعنا هنا - ليس الإيمان بالوحي وبالأنبياء - بل - إذا كانت كتبُ الأديان
 الثلاثة متفقةً في التعاليم الجوهرية ، وفي المقصد والغاية ، أم لا ؟
 أمّا اتفاقها وعدمُ تخالفها - فقد ثبت - ولا يستطيع أحد جحدَه
 وإنكارَه .

وأما ما يراه المنكر - ونراه نحن كذلك من اختلاف أهل الأديان فتليس
 هو من تعاليمها ، ولا أثر له في كتبها - وإنما هو من صنعِ بعضِ رؤساءِ
 هذه الأديان الذين يتجرون بالدين ، ويشترون بآياته ثمنًا قليلًا - ساء ما يفعلون .
 رؤساء الأديان - وما أنفعهم إذا صلحوا - وما أضرهم إذا فسدوا ، فالأديانُ
 في أصلها وجوهرها - وازعٌ عظيم ، ودواءٌ نافعٌ مفيدٌ لكثير من أمراضِ البشر -
 هذا إذا أحسنَ الأطباء (وهم هنا رؤساء الأديان) عدمَ خلطِ ذلك الدواء ،
 بالضرار من الأجزاء ، وراعوا قابليَّةَ العقول قبلَ الأجسام وأعطَوْها منه
 بقدر معلوم ، بقول مفهوم - وبيان معقول .

وكان بعض الباحثين قد أخذ على السيد قوله : إن أصول الأديان واحدة ، وسأله عن أمر التصوف فأجاب السيد بما يأتي :

قال : إن أمر التصوف لم يكن في المسلمين فقط — بل رجال أديان الكتب السماوية كانوا على حقيقة من التصوف في المعنى — واختلاف في صورة الألفاظ ، وشكل الإلقاء أو الفهم الذي يريده الرئيس أو المسيطر — أن يحرر به المعنى على حسب ما يريته نافعاً ومفيداً وموافقاً للغرض في حينه .

فآيات التصوف في التوراة أكثر إغلاقاً مما في الإنجيل ، مثل قوله (إسرائيل ابني البكر) ، فاليهود مع وجود هذه الآية في التوراة — ما ذهبوا ولا اعتقدت أن الإله له ابن ، أو يجوز عليه ما يجوز على البشر من أشكال التناسل ، والولادة أو الزوجة والولد .

ومثل هذه الكلمات والأقوال — لا يَسَعُنَا إِلَّا أن نقول إنها (تصوف) أو ألفاظ لمعان ، حقيقتها غير ظاهر ألفاظها .

وكثيراً ما تأتي أقوال المتصوفة على صورة من الإبهام — بالنسبة لبعدها ما بين منظورهم بالبصيرة ، والحس الروحي وبين ما يرى من الأشياء المحسوسة ولها قوالب ألفاظ مألوفة تدل على معناها — بعكس المرقى والمشاهد في الحس الروحي ومواجد أهل التصوف الذوقية ، التي يقصر ما لدينا من الألفاظ عن تصورهما والدلالة عليها .

فالتصوف يجب أن نفهمه — إنه مذهبُ حكماء وعقلاء « تَرِيضُوا » أي هذبت ، ولطفت جملانهم الرياضة وكثر منهم النظر في الأشياء ، والتطلع إلى حقائقها وفهم كنهها عن طريق (الحس الروحي) والانفعال في النفس المتعلقة في الجسم مؤقتاً ، فهم فيما كانوا يرون ويقولون في مواجدهم ومشاهدتهم وذوقهم — إماماً أن يراه من كان في غير طبقتهم — غير معقول وغير مفهوم — وإماماً أن يسمى فهم معناها إذا أخذها على ظاهر لفظه .

أساس تعليم المسيح والغاية من مجيئه

كان السيد وهو يتكلم في التصوف وفي أن الأديان الثلاثة متفقة في المقصد والغاية - وأن غرضها تعليم التوحيد ، وأن تعمل لخير الإنسان في حفل حاشد في بيته فقال له طيب موسى :

إن النصرانية لا تعلم التوحيد بل أساسها قائم على التثليث - بعكس الموسوية والإسلام - والإنجيل طافح بمثل أقوال المسيح (أنا في الآب والآب في ، ومثل قوله : أيها الأب مجد ابنك يمجّدك ابنك أيضاً ، فقال جمال الدين :

إن المسيح (ص ع) وضع أساس تعليمه والغاية من مجيئه أن يكمل الناموس ، لا أن ينقضه ، وناموس موسى بُنى على التّوحيّد فلا يصحّ نقض هذا الأساس - وإن وّرّد في بعض الأقوال ما يخالف في ظاهره ذلك الأساس - وجب الرجوع إلى التّساؤل - كما قدّمنا - وأن لا نرمي أيّ دين بالضعف والوهن .

وأما أمثال قول المسيح ، أنا في الآب والآب في « فقد ورد عنه قوله (أبي وأبيكم - وكلهم أبناء الله يُدعَوْنَ » وفي التوراة - كما ذكرنا جاء « إسرائيل ابني البكر » وهذه الأقوال كلها تصوّف محض .

وورد في كلام أهل التصوّف من المسلمين أقوالٌ مُغلّقة . .

يقول الشيخ الأكبر ^(١) في بعض صلواته « اللهم يا من ليس حجابُه إلاّ النور ، ولا حفاؤه إلاّ شدة الظهور ، أسألك بك في مرتبة إطلاقك عن كلّ تقييد التي تفعل فيها ما تشاء وتريد ، وبكشفيك عن ذاتك بالعلم النوري ، وتحولك في صور أسمائك وصفاتك بالوجود الصوري .

ويقول السيد البكري : نِعَمَ العبدُ الذي به كمالُ الكمال ، وعباد الله بالله بلا حلول ولا اتحاد ، ولا اتصال ولا انفصال .

ترون من هذه الكلمات المتناقضة ظاهراً - إنما أراد نفي الحلول الدّاتي

(١) هو محيي الدين بن عربي .

فأتى لذلك بنى الحلولِ أولاً - وإلا كيف يعقل لو بقينا على مفهومِ الظاهر من معنى الكلمات - أن المتصل في الوقتِ ذاته يكون منفصلاً .

فعانى التصوُّف - وإن كانت مغلقةً في الغالب لا يفهمها إلا أصحابُ الذوقِ والمواجد - ويعسرُ على غيرهم تناولُ فهمها - فلا بأس من التقريب بالتأويل لينتفى غيرُ المعقول .

وخير مثال يقرب للعقلِ المفهوم في مثل هذه الحال والأقوال (المرأة) التي تمثل الشيء تماماً فيفتح بهذا المثل بعض مغلفات ما ذكر من كلام المتصوفة . فإذا قابلت المرأةُ الشمس - رأيتها في المرأة ولا يعترى الإنسان أدنى شبهةٍ لِنها (الشمس) على غير طريقةِ الحلولِ في المرأة ، ولا على صورةِ الاحتاد أو الاتصال أو الانفصال .

وحقيقةُ ذلك المرتى من الشمس ، إنما تجلى في المرأة (لشفافيتها) وبتلك الشفافية حصل ذلك الانطباع على تلك الصورة - على غير حاول ، ولا ولا إلخ وإذا علمنا أن تجلى الشمس في المرأة حصل لشفافيتها - هكذا تجلى الذات في خلقه عندما تتلطف الكثافة الترابية الجسمانية ، وتشف الروح وتمكن - من اتصالها بعالمها - ترى من الذوق في الشهود - ما لا يسعه إلا التعبير بالمتناقضات ظاهراً كما تقدم - وليس ثمة تناقض .

وكلامُ المسيح (ص . ع) إن هو إلا غاية في التصوُّف - ولا يصح حملهُ أو فهمهُ على صورته الظاهرية - وإلا لا تنقض أساسُ الناموس الموسوى - الذى إنما أتى (أى المسيح) ليتممه فلا يصح أن تنزل التوراة على موسى من عند الله (بالتوحيد) وينزل الإنجيل من عند الله على عيسى بالتثليث .

وصريحُ أقوال المسيح في جوهر الاعتقاد أكبر دليل على صحة ما نقول من أن الأديان الثلاثة متفقة في المقصد والغاية .

التعصب الديني

كان جمال الدين مصلحاً واسع الأفق يريد الخير والإصلاح لأمة الإسلام وكان في دعوته مثال الرجل السمع الذي يمقت التعصب ، وفي مقاله هذا ما يدل على تلك النفس الصافية السامية :

. . . إن الدين أول معلم وأرشدُ أستاذ وأهدى قائد للأنتفس إلى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف ، وأرحم مؤدب ، وأبصر مروض يطبع الأرواح على الآداب الحسنة ، والخلائق الكريمة ، ويقيمها على جادة العدل ، وينبه فيها حاسة الشفقة خصوصاً دين الإسلام . فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الأمم في التوحش والتسوسة والخشونة ، وسما بها إلى أرقى مراق الحكمة والمدنية في أقرب مدة ، وهي الأمة العربية .

التغالي في التعصب الديني

قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والإفراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسي ، فيفضى إلى ظلم وجور ، بل ربما يؤدي إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم ، ونحو وجودهم ، وكما قامت الأمم الغربية فاندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتح والإبادة ، لا للفتح ولا للدعوة إلى الدين في الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب ، وكما فعل الإسبانوليون بمسلمي الأندلس ، وكما وقع قبل هذا وذلك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي - إلا أن هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلماً تمتد له مدة ، ثم يرجع أرباب الدين إلى أصوله على قواعد السام والرحمة .

تعصب بعض طوائف أهل الدين الإسلامي

أمّا أهل الدين الإسلامي فمنهم طوائف شطت في بعضها في الأجيال الماضية إلا أنه لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الأباده وإخلاء الأرض من مخالفيهم في دينهم - . ولنا الدليل الأقوم على ما نقول وهو

وجود الملل المختلفة في ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم (أن) تسلطوا وهم في عنفوان القوة ، وهي في وهن الضعف .

نعم كان للمسلمين ولحج بتوسيع الممالك ، وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم ، إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الأديان ويرعون حق الذمة ، ومن العقائد الراسخة في نفوسهم أن من رضى بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا ، ولم يعدلوا في معاملتهم عن أمر الله في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) ، اللهم إلا ما لا تخلوا عنه الطباع البشرية .

ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو الرتبة ، وارتفاع المكانة — وقد سما في دواك المسلمين — على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من أرباب الأديان المختلفة . وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوتها ، ولم يزل الأمر على ما كان . وفي الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل إلى اليوم (فسحاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم) . . .

الاعتدال في أصول الأخلاق والفضائل ، إنما يكون بالدين

يرشيدنا رائد الحق إلى أن الاعتدال في أصول الأخلاق والتحلل بجملة الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها إنما يكون (بالدين) ، ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيبوا حظاً وافراً مما يرشد إليه فيتمتعوا بحياة طيبة ، وعيشة مرضية ، إلا إذا قام رؤساء الدين وحملتة وحفظتة بأداء وظائفهم من تبيين أوامره وفوائده ، وتشبيها في العقول ، ودعوة الناس إلى العمل بها وتبنيه الغافلين عن رعايتها ، وتذكير الساهين عن هديها .

أما إذا أهمل خدمة العلم ووظائفهم ، أو تنهوا في تأدية أعمالها ، ضعف اليقين في النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت

البصائر بالغفلة، وتحكمت الشهوات البهيمية — وتسلّطت الحاجات المعيشية ،
ومال ميزانُ الاختيار مع الهوى، فحشدت إلى الأنفس أوفاد الرذائل، فيحقّ على
الناس كلمةُ العذاب ؛ ويحلّ بهم الشقاء .

الجنسية والديانة الإسلامية

وفي هذا المقال أيضاً يملو جمال الدين بالأمة الإسلامية عن الحدود الضيقة العصبية فيقول :

. . . لم تكن أصولُ الدين الإسلامي قاصرة على دعوة الخلق إلى الحقّ ،
وملاحظة أصول النفوس من جهة كونها ، روحانية مطلوبة في هذا العالم
الأدنى إلى عالم أعلى — بل هي كما كانت كافلةً لهذا ، جاءت وافيةً بوضع
حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كليتها وجزئها وتحديد السلطة
الواذعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات ، وإقامة الحدود ، وتعيين شروطها حتى
لا يكون القابضُ على زمامها إلاّ من أشدّ الناس خضوعاً لها ، ولا ينالها
بوراثة ولا امتياز في جنسٍ أو قبيلة ، أو قوةً بدنية ، أو ثروةً مالية — وإنما
ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضا الأمة، فيكون
وازعُ المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التي لا تميز بين جنس
وجنس ، واجتماع آراء الأمة ، وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا بكونه
أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها .

وكلُّ فخار تكسبه الأنساب ، وكلُّ امتياز تفهده الأحساب ، لم يجعل له
الشارعُ أثراً في وقاية الحقوق ، وحماية الأرواح والأموال والأعراض .

قال صلّى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل
على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » والأحاديث النبوية والآيات المنزلة
متضافرة على هذا ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام — من يفوق الكافة في التقوى
قال تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان ، على اختلاف الأجيال من لا تُعرف في جنسه ، ولا امتياز له في قبيله ، ولا ورث المال عن آباءه ، ولا طائفة بشيء من حسبه ونسبه ، وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه .

المسلمون مطالبون بالمحافظة على ما يدخل في ملكهم

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة ، مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ملكهم ولايتهم - من البلدان - وكلهم مأمورٌ بذلك ، لا فرق بين قريبتهم وبعيدهم ، ولا بين المتحدين في الجنس ، ولا المختلفين فيه - وهو فرض عين على كل واحد منهم - إن لم يقيم قوم بالحماية عن حوزتهم - كان على الجميع أعظم الآثام ، ومن فروضهم في سبيل الحماية ، وحفظ الولاية ، بذل الأرواح والأموال ، وركوب كل صعب ، واقتحام كل خطب - ولا يُباح لهم المسألة مع من يغالبهم ، في حال من الأحوال - حتى ينالوا الولاية خاصة لهم دون غيرهم .

٢ - في ميدان السياسة

الحكومة الاستبدادية^(١)

لما أخرج السيد جمال الدين من الآستانة مرغماً في زيارته الأولى لها - بكيد رجال الدين فيها وجاء إلى مصر يحمل في نفسه المتفدة غضباً ومقتاً وبخاصة بما رآه هناك من بنى وظلم وغدر الحكم الاستبدادي الذي كان يسود البلاد حينئذ ، انبرى قلمه البليغ فحبر هذه المقالة الرائعة التي لم يكتب مثلها في وصف الحكومات الاستبدادية ولنفاستها وفلسفتها وعلو أسلوبها رأينا أن تأتي بها هنا على طولها إلا قليلاً منها ، ولا غرو فإن السيد قد قضى حياته كلها يحارب - فيما يحارب الظلم والظفیان في أي مكان وكان دائماً يسعى إلى الحكومة الجمهورية .

إنَّ طولَ مكثِّ الشرقيين تحت نيرِ المستبدِّين الذين كان اختلافُ أهولهم الناشئُ عن تضادِّ طبائعهم ، وسوء تربيتهم مع عدم وجود رادع

(١) عن العدد ٣٣ من جريدة مصر الصادرة في مدينة الإسكندرية في ٢٢ صفر سنة ١٢٩٦ هـ

(٦ فبراير سنة ١٨٧٩ م) .

يردهم، ومانع يمنعهم، وقوة خارجية تصادمهم في سيرهم - سبباً أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم، بل اقتضى التصرف في غراتهم وسجاياهم، والتغير في فطرتهم الإنسانية حتى كادوا لا يميزون بين الحسن والقبيح، والضار والنافع، وأشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم وما انطوت عليه من القوى المقدسة، والقدرة الكاملة، والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة، والعقل الفعال الذي تخضع لديه البسائط والمركبات، وبطبع أمره الناقد لجميع المواليد من الحيوان والنبات - وإن امتداد زمن توغلهم في الخرافات التي تزيل البصيرة، وتستوجب الخو التام والذهول المسترق، بل تستدعي التنزل إلى الرتبة الحيوانية - ومداهمتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التي تكشف عن حقيقة الإنسان، وتعلمه بواجباته، وما يلزمه في معاشه، وتبين له الأسباب الموجبة للخلل في الهيئة الاجتماعية، وتمكنه من دفعها والسعي في إطفاء نورها بما ورثوه عن آباؤهم من سفه القول، وسخف الرأي، والجد في اضمحلال كتبها وضياح آثارها واستبدالها بما أوقعهم في ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبداً^(١).

مزايا الحكم الجمهوري

كل هذه الأسباب تمنع القلم عن أن يجرى على قيرطاس بين شرقي في البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية^(٢)، وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين بها، وأن الموسين بها أعلى شأنًا، وأرفع مكانة من سائر أفراد الإنسان، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الامم دون من عداهم، فإن الإنسان الحقيقي هو الذي لا يحكم عليه إلا القانون الحق المؤسس على دعائم العدل، الذي رضيه لنفسه، يُحدّد به حركاته وسكناته، ومعاملاته مع غيره على وجه يصعد به إلى أوج السعادة الحقيقية، وتصدّه عن أن يرقم على صفحات

(١) استعمال استبدل هنا على غير ما في الكتاب العزيز لأن الباء بعد استبدل تدخل على المتروك.

(٢) هذا أوضح دليل على أن السيد جمال الدين كان يسمي إلى الحكومة الجمهورية. وهو أول

الأوراق ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة ويوضح عن فوائدها وثمراتها، ويبين أن المحكومين بها قد هزتهم الفطرة الإنسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية، والترقى إلى أول درجات الكمال، وإلقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة، وتطلب مشاركة أولى أمرهم في أزمهم وكبح شره النهمين منهم، الطالبين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم - وهذا أضربنا صفحاً عن ذكرها وأردنا أن نذكر في مقالنا هذا - الحكومة الاستبدادية بأقسامها فنقول :

إنّ الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصرها الذاتية، وأقانيمها الحقيقية التي هي عبارة عن : أمير، أو سلطان ووزراء، ومأمورى إدارة وجباية ستقسم إلى ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) منها - الحكومة القاسية وهي التي تكون أركانها - مع -

اتسامهم بسمة الإمارة والوزارة والإدارة والجباية - شبيهة بقطاع الطريق، فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة، ويسلبهم أموالهم وموتهم وثيابهم التي تقيهم الحرّ والبرد وسائر مواد حياتهم - ويتركهم في البوادي والقفار حفاة عراة جباعاً، تقطعت بهم جبال الوسائل، ولا يلاحظ أن فيهم الهرم والصغير والعاجز والضعيف الذين لا يستطيعون التخلص من المهالك، ولا يقتدرون على النجاة، ولا يبالي بموتهم وهلاكهم عن آخرهم، ولا تأخذه في ذلك الشفقة والرحمة.

كذلك هؤلاء الأركان يغتصبون ضياع رعاياهم وعقاراتهم، ويستولون على مساكنهم وبساتينهم، وينتزعون بالضرب والجبن والكنى وغيرها من أنواع العذاب ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم، ويدعؤونهم في مخالب المصائب معترّضين للأستقام والآلام، وأهدافاً لسهام البلايا التي ترميهم بها عواصف الرياح الزمهريرية والسّموم، ولا يخشون اضمحلالهم وإبانتهم بالكلية ومحق حياتهم بالمرّة^(١) بل يستبشرون بذلك كأنما هم أعداؤهم ولا يشعرون أنهم قواد

(١) قيل لحاكم شرق : إن رعيتك يموتون و عمل السخرة الفلاني الذي كلفتم إياه، فلو رفقت بهم ؟ فقال « وهل نحن تسلماهم بالعدد فنخشى أن يتقصوا ! » .

السلطة وأساسها ، ومن أفراد هذا القسم الحكومةُ التيمورية والتَّرية وغيرهما .
كما تشهد بذلك التواريخ .

(القسم الثاني) الحكومةُ الظالمة ، وأولياء هذه الحكومةِ تماثلُ الاخساء
والمترفين ، الذين يستعبدونَ أَناسًا خُلِقُوا أحراراً — فكما أنَّهم يكلفون
عبيدَهم بأعمال شاقة ، وأفعال متعبة ، ويجبرونهم على نَقْرِ الأحجار ، وخوض
البحار — وطىِ المفاوز وجنوبِ البلاد في صرَّة الشتاء وهجير الصيف ، ويثُلون
أبدانهم بالسياط إذا لجأوا آناما إلى الراحة التي تجلبهم الطبيعة إليها — ويحجبونهم
بأشغالهم المستغرقة لأيام حياة هؤلاء المظلومين — عن مزايا جواهر عقولهم المقدَّسة
حيث لا يجدون فرصةً من دهرهم للنظر في الآفاق ومن أنفسهم ، كمن يرتقوا من
الإحساس البهيمى ، إلى عرش الإدراك الإنسانى ، ويشاركوا أبناء جنسهم في
اللذائذ الروحية ، ويحتنوا ثمار عقولهم ليؤازروهم بنتائجها من الصنائع البديعة ،
والمخترعات الرفيعة ، فيسعدوا مع السعداء ، ومع ذلك يحرسون حياتهم ويحرسون
على استيفائها استبقاءً للخدمة منهم بتقديم قوت من أردأ ما يقتات به لسد
الرَّمق ، وثياب خشنه رثة لتحفظهم من أظفار العواصف ، ويرانن القواصيف ،
فلا يكونُ حالُّهم مع سادتهم إلاَّ كحال البهائم والأنعام الأهلية ! لا يعيشون
إلاَّ لغيرهم ، ولا يتحرَّكون إلاَّ برضاه ، بل بمنزلة آلة غير شاعرة بأبدى
مستبديهم يستعملونتهم كما يشاءون .

كذلك هؤلاء الولاةُ مع رعاياهم ، فإن الرعايا لا يزالونَ يتحمَّلون المتاعب
والأوصاب ويكدون أيام سِنيتهم ، ويسهرون لياليها مشغولين بلا فتور
بالغرس والحراث ، والحصد والدَّرس ، والندف والحلج ، والغزل والنسج ،
مهتمين بالحدادة والتجارة والملاحة والتجارة ساعين في حَقْرِ الأنهر وإنباع
المياه ، وإنشاء الجداول والحُسور متكبدين آلام التغريب في الحر المبيد والبرد
المميت ، كمن ينالوا (أى الحكام) أرغندَ العيش بطيبِ المطعم والمشرب
والملبس والمسكن ، ويجوزوا الراحة والرفاهة والحظ والسعادة — وهؤلاء

الظلمة لا يفرون عن السعى في سلب ما بأيديهم جبراً ، وغضب ثمار مكاسبهم وفوائد متاعبهم رغماً . . .

ومن أقسام هذه الحكومة غالبُ حكوماتِ الشرقيين في الأزمانِ الغابرةِ والأوقاتِ الحاضرةِ ، وكذلك أكثرُ حكوماتِ الغربيين في الدهورِ الماضيةِ . . .

القسم الثالث - الحكومةُ الرحيمةُ وهي تنقسم إلى قسمين :

القسمُ الأولُ منها الحكومةُ الجاهلةُ ، ودعائمُ هذه الحكومة تحاكي الأب الرحيم الجاهل - يحث أبناءه على اقتناء الأموال واكتساب الثروة واستحصال السعادة والاقتصاد في المعيشة بدون أن يتبين طرقها ويمهد لهم سبلها لعدم علمه بها . . .

القسم الثاني منها الحكومةُ العالمةُ وقد قسمها إلى قسمين ، شبه القسم الأول بالأب العالم المأفون وأطال في وصفها ثم تكلم عن القسم الثاني من هذه الحكومة وسماها الحكومة (المتنطسة) ، وأساطينها الحكماء وقال إنها تضارع الأب المتدبر المتبصر الذي لا يبرحُ ساعياً في إعداد الأسباب الموجبة لسعادة أبنائه . ونجد هؤلاء الحكماء الأساطين يعلمون أن قوام المملكة وحياة الرعايا بالزراعة والصناعة والتجارة ، ويعرفون أن كمال هذه الأمور وإتقانها لا يكونان إلاً بأمرين :

أحدهما - وهو في الواقع عليتهما -

الأول : العلوم الحقيقية النافعة والفنون المفيدة . .

وثانيها : إعدادُ آلات الزراعة وأدوات الصناعة وتسهيل طرق التجارة البرية والبحرية ، ويفقهون أن حفظ أساس المدنية وصون نظام المعاملات وفصل المنازعات . . لا يكون إلاً بالسياسة المؤسسة على دعائم العدل والإنصاف . . .

ويقرون بأن استكمال سعادة المملكة وصيانة استقلالها لا يكونان إلاً بارتباطاتها السياسية وعلائقها التجارية مع الممالك الأخرى ولا يتم ذلك

إلّا برجال عارفين ، دهاة متبصرين محبين لأوطانهم . . محنّكين بالسياسة ،
علمين بالحوادث قبل ظهورها . .

إلى الإنسان الشرق :

وبعد أن أفاض السيد في بيان ما يجب أن تكون حل الحكومة العادلة ، وجه خطابه إلى الإنسان
الشرق فقال :

يا أيها الإنسانُ الشرقيّ ، صاحبُ الأمرِ والشَّهي ، هناك حكومةٌ رحيمةٌ
حكيمَةٌ فعليكَ بِهَا والقيامَ بِشأنها وحفظَ واجباتِها - وإلّا فبِحياتك التي
أفتسيها براحةِ العالم أن (تعفونا) من تحمل ثقل تشدُّقِك بالرحمةِ والعَدالةِ
والحكمةِ والفضيلةِ !

أتريدُ أن تظلمنا ونُكافئك بالشكر ؟ وتغتنبَ حقوقنا ونجازيك بالثناء ؟
أو تظنُّ أنَّكَ تقدرُ أن تغرُّ كلَّ العالم وتعمى بصائرهم ، وأن تنزلَ بباطلك
عندهم منزلةَ الحق ؟ وأن تجلسَ بجورِكَ مجلسَ العَدل ؟ وأن تقيمَ سيئاتك
مقامَ الحسنات ؟ وأن تُقعدَ رذائلك مقعدَ الفضائل ؟ ولعلَّكَ اغتررتَ
بتمجيدٍ وتعظيمٍ المبصِّصين ! وتبجيل المتزلفين !

ولو كنتَ تعلمُ مقامك من النفوس ، ومنزلةك لدى أرباب البصائر
والعقول ، لودعتَ هذه الدنيا الخزون التي ألهمتكَ ، وفارقت حياتك
العزيرة التي طالما افتديتَها بالمروءة والإنسانية .

أمّا أنتم يا أبناء الشرق فلا أخاطكم ولا أذكركم بواجباتكم ، فإنكم قد ألتمت
الذلَّ والمسكنة ، والمعيشة الدنيئة واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف .

صرتم كالعجائز !! لا تقدرون على الدرء والإقدام ، والدفع والمنع
والرفع فإننا لله وإننا إليه راجعون^(١) . . .

(١) حذفنا من هذه المقالة كلاماً كثيراً لطولها .

الوحدة والسيادة - أو الوفاق والغلب

كان جمال الدين من دعاة الوحدة إذ يرى فيها القوة والغلبة وفي هذا يقول :

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورةُ تارةً ويَسْهَدِي إليهما الدينُ تارةً
أخرى ، وقد تَفِيدُهُمَا التَّربِيَةُ وممارسةُ الآدابِ ، وكلُّ منهما يطلب الآخر ،
ويستصحبه ، بل يستلزمه ، وبهما نموُّ الأممِ وعظمتُها ورفعَتُها واعتلاؤها -
وهما الميل إلى وحدة تجمع ، والكلف بسيادة لا توضع .

وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوائبه (يثبت ويقيم) إلى أجل مسمى
أودع في أصوله هذين الوصفين الجليلين ، فأنشأه خلقاً سويّاً ثم استبقى له
حياتَه بقدر ما مكن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله . . .

وإذا تَصَفَّحْنَا تاريخَ كلِّ جنسٍ واستقرَّنا أحوالَ الشعوبِ في وجودِها
وفنائها ، وجدنا هذه سنةَ الله في الجمعيات البشرية - حظها في الوجود على مقدارِ حظها
من الوحدة ، ومبلغُها من العظمة على حسب تطاولها في الغلب ، وما انحطَّ شأنُ
قومٍ وما هبطوا عن مكانهم إلاَّ عندَ لهوهم بما في أيديهم ، وقناعَتِهِمْ بما تسنى
لهم ، ووقوفهم على أبوابِ ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء ، وما أهلك الله قبيلًا
إلا بعدَ مارزُتوا بالافتراق ، وابْتَسَلُوا بالشقاق ، فأورثهم ذلاً طويلاً ، وعذاباً وبيلاً
ثم فناءً سرمدياً .

٣ - في ميدان العلم والاجتماع

حقيقة التمدن

سأل السيد مرة من حوله عن معنى التمدن - أو العالم المتمدن ؟ فقالوا : هو الرق النسبي في
المكتسبات العلمية والمدنية ، فامة الإنكليز مثلا والفرنسيس ، والألمان ، والأمريكان ، ومن مثلهم
من الأمم ، هم مدنيون ، متمدنون بأفرادهم ومجموعهم فقال السيد :

لا يقدرُ الفسردُ ، ولا تقدرُ الأمة ، ولا تقدرُ الأشياء ، ولا تقدرُ المكتسباتُ
العلمية إلاَّ بنسبة ما يترتب على ذلك من الفائدة .

فلنأخذ من ذكرتم من الأمم المتقدمة ، ومكتسباتهم العلمية ، وما صنعوه وعملوه ، وكسبوه ، وربحوه ، وما ترتبَ على ذلك ، وما حصل من المنافع والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات ، والمدنية ، والثروة ، ثم نعدّ ما رأينا ؟ هل رأينا غيرَ مدنٍ كبيرة ، وأبنية شامخة ، وقصور مزخرفة ومعامل ومصانع ومعادن ومناجم واحتكار تجارات ، أمتٌ لهم بكنوز وثروات ؟

ثم هل غير المتفطن في اختراع المدافع المروعة والمدّمرات والقذائف^(١) وباقى المحربات القاتلات للإنسان التي تتبارى تلك الأمم الراقية فيها !

لو جمعنا كل ما في ذلك من المكتسبات العلمية ، وما في مدينة تلك الأمم من خير وضاعفناه أضعافاً مضاعفةً ، ووضعناه في كفة ميزان ووضعنا في الأخرى الحروب وويلاتها ، لا شك أن كفة المكتسبات العلمية والمدنية والشرف ، هي التي تنحط وتغور ، وكفة الحروب وويلاتها - هي التي تعلو وتنفور . فالرق ، والعلم والتمدن على ذلك النحو وفي تلك النتيجة إن هو إلا جهل مخض ، وهمجية صرفة وغاية التوحش ! !

ثم قال :

وعندى أن الإنسان اليوم هو أخطأ درجة من إنسان الجاهلية ، حتى ومن الحيوان الناهق ، لأنه ربما يكون للإنسان في دوره الأول - في حروبه الوحشية وعوامل الجاهلية معذرة في طلب الحاجيات للحياة ، بسهم وقوس وسيف وسهمي .

أما أن الإنسان أخطأ من الحيوان الناهق (لعدم استفادته من حقيقة العلم أو العلم الحقيقي) فأعظم أدلته « الحروب » . . .

هل رأيت أو سمعت أن ثلاثمئة ألف أفعى وقفت تجاهها مثلها وكشّرت عن أنيابها لتقتل ؟ أو رأيت ذلك في العقارب ؟

(١) ترى ماذا كان السيد يقول فيما يتحدثون بعده من المهلكات كالتقابل النووي والهيدروجينية

وهل وقفت الأسود صقوفاً وتناهش بعضها لحوم بعض ، وسالت دماؤها ؟
أو الحمير فعلت مثل ذلك ؟ ؟ كلا ثم كلا .

إذا فالإنسانُ في مدنيته الحاضرة وفي كل مكتسباته العلمية والأدبية والعملية
أحطٌ من هذه الحيوانات — وليس تمت مدنية ولا علم بل جهلٌ وتوحش .
ثم قال :

قرأتُ في القرآنُ أمراً تغلغلّت في فهمه روجي وتنبهتُ إليه بكلّيتي وهو :

وإذا قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة . . .

فاندهشت الملائكة لهذا النبأ ، ولهذا المشيئة الربانية — إذ علمت أن ذلك
الخليفة سيكونُ الإنسان — وأن ذلك الإنسان — الخليفة — سيصدرُ منه موبقات
وسيئات ، أعظمها وأهمها أنه « يسفك الدماء » !!

فقالَت بعلء الحرية المناسبة مع الملاء الأعلى ، وعالم الأنوار والأرواح — الذي
لا يصحّ أن يكون هناك فيه شيء من رياء ونفاق « أتجعل فيها من يفسد فيها
ويسفك الدماء » ؟

ووقفت الملائكةُ عند هذا الحد من الطعن في الإنسان ولم تذكر باقي
السيئات من أعماله . . .

وقد أجابهم الله بقوله « إني أعلمُ غيبَ السموات والأرض » فأفهمهم (أنكم
علمتم ما في خيلفتي في الأرض — وهو الإنسان من الاستعداد لعمل الفساد
وسفك الدماء ، وجهلتم ما أعددتُه لصوّنه وصرفه عن الإتيان بالنقيصتين
المذكورتين ألا وهو (العلم) .

فقال وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئوني بأسماء
هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت
العليم الحكيم . .

فلا تثرِب على من يقول : إن الله أراد بهذا أن يقول للملائكة « أيتها
الملائكةُ إني قد علمتُ آدمَ (خيلفتي في الأرض) علماً جهلتموه أتم . .

وأن بذلك العلم يُصان الإنسان ، ويكفّ عن الفساد وسفكِ الدماء -
فلا يتحدّث من خليفتي ما خشيتموه ، وأعظمتُم أمره وذلك الصون للإنسان
حصّره (بالعلم) ! .

وجاء في القرآن تعظيمِ قدر (العلم الصحيح) لا ما نراه من القشور فنسميه
علمًا، بمثل قوله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » ومثل
« وما يعقلها إلا العالمون » .

فترى حكم المساواة في القرآن قد جاء عامًّا بين الناس إلا في هاتين الآيتين .
(إذ منع في الأولى المساواة بين العالم والجاهل) وفي الثانية « أن يكون غير العالم
عاقلاً » .

فمّا تقدّم - يفهم أن العلم الصحيح الذي يمكن للآدمي أن يصل إليه هو
(العلم) الذي به ينتهى الإنسان عن الفسادِ في الأرض وسفكِ الدماء - والعلم
الذي لا يصون الإنسان عن هذين التقيصتين ليس هو بالعلم الذي تعلمه آدم
ليدحض حجة الملائكة على أنه سيفسد ويسفك الدماء - بل هو يناقضه -
ويشهد على ذلك التقيص ما نشاهده اليوم في أوروبا والعالم المتمدّن ! مما جعل
رقبهم النسبي في المكتسبات العلمية تقيصًا للبرهان .

ولابد أن يتصلّ العالم الإنساني إلى درجة من حقيقة العلم يمنع بها عن إراقة
دماء بعضهم بعضًا وليس بين القاتل والمقتول ، لا نزاعٌ ولا خصام حتى
ولا تعارفٌ بالوجوه في غير صفوف القتال ! يُساقون للمجازر لإرادة ملك مسرف
مغرور ، أو تهويل أفراد يقبضون على زمام الأحكام ، ويسوقون الخلق للقتل
كالأنعام - يغتزمون فرصة الحرب ليكثروا من ورائها الدّهَب والفضّة .

وإن الإنسان لتعروّه الدّهْشة عندما يرى أفراد الأمة يسوقُ بعضهم بعضًا
للثكنات وصفوف القتال وجلهم غير راض عنها بل نافرٌ منها - إذ يعلم أن
من ورائها يُتَمّ الأطفال ، وموتُ الشيوخ ، وهتكُ الأعراض ، يهلون عليهم
ويستهونهم باسم الوطن !! - والوطن بقاعٌ من الأرض ولو أنصف الناس

بعضهم بعضا لوسعتهم . . . فما أحرى الإنسان أن يعيش مع أخيه فوق أديمها - وهو رفات العباد - بصحيح الإخاء وشيء من الهناء، ربّما يدركُ الجميع الفناء .
ومما يزيدُ في الدهشة والخيرة أن الحروب وويلاتها لا يحتاجُ في توقيفها وإبطالها إلا توقف الأمة عن إجابة الداعى إليها ، وطلب الرجوع إلى العدل المطلق مع تحكيم الإنصاف المحض . . .

نعم إن عدم إجابة الأمم لداعى الحرب ، واتفاقها على تحكيم العقل والعدل فيما فيه يختلفون - هو الذى يكفى البشر شرّ الحروب والقتال ، ويجعل الخلق في سلام دائم وهناء مقيم .

هناك يصحّ أن يُقال - إن البشر أو بنى آدم - قد تعلموا وحصل لهم مكتسبات علمية أو على اصطلاحكم « تمدّنوا ! » ليس بمعنى أنهم تركوا القفر وعمرروا المدن وسكنوها ؟ كلا ، بل بصحيح العلم الذى إنما يكون له قدر على نسبة

ما يترتب عليه من الفائدة .

وأعظم ما يبعث على الأمل في إبطال الحروب - إذا ارتقى العالم الإنسانى في حقيقة العلم وعم طبقاته - أنك لو أخذت اليوم جميع عساكر بريطانيا وتخليتهم حقيقة مثل (نيوتون) و « دارون » وغيرها وفرنسا مثل « باستور » وأمثالهم من باقى الأمم فهل يقفون صفوفاً للقتال ؟ لعدم احترام سفير ! لأن كرسىه وضع في المادبة الملوكية في غير الوضع الذى يريده^(١) وهل يُريقون دماءً مئات الألوف من تلك الأنفس الذكية لذلك، أو لأجل بقعة من الأرض يطعمونَ في ضمّنها للملكة أو يستعمرونها ؟ ؟

لا أظنّ ولا تظنون ذلك . ولا هم يفعلون .

(١) هذا كان من أسباب وقوع الحروب بين الأمم ولعله لا يزال . . .

الاشتراكية

قال رجل من كبار أدباء الأتراك - السيد جمال الدين - وكان معجباً بالأم الغربية ونحسبها الاجتماعية : إن خير ما في أوروبا من النهضة هو الاشتراكية ، وهذه النهضة هي التي ستؤدي حقاً مهضوماً لا كثرية من الشعب العامل .

فإذا كان الدين الإسلامي أو المشيخة الإسلامية^(١) ، يقاومان مذهب الاشتراكيين - فأرى هناك ثلثة لا تسد بسهولة وحائلا يجب ملافاته بالحكمة فما رأيكم ؛ فقال جمال الدين :

إنَّ ما تراهُ من الاشتراكيةِ في الغرب ، وما تتوخاهُ من المنافعِ بذلك المذهب - في شكله الحاضر - وأسسِهِ وتخبيطِ واضعِي مبادئه - كل ذلك يعكسُ نتائجَ الاشتراكيةِ ويجعلُها محضَ ضررٍ بعد أن كان المنتظر منها كل نفع .

الاشتراكية الغربية :

الاشتراكية الغربية ما أحدثها وأوجدتها إلا حاسةُ الانتقامِ من جورِ الحكامِ والأحكامِ ، وعواملِ الحسدِ في العمالِ من أربابِ الثراءِ الذين أنثروا من وراءِ كدِّ هؤلاءِ العمالِ وعملهمِ وادخروا كنوزَهُم في الخزائنِ ، واستعملوا ثروتهم في السّفَه ، وبذلُوها في السّرْف والتبذيرِ والترِف - على مرأىٍ من منتجِها ، والفاعلِ العاملِ في استخراجِها من بطونِ الأرضِ ومن ترابِها و . . إلخ . وبالاختصارِ ثمراتُ العمالِ بكلِ أنواعِ حاجةِ العمرانِ .

فكلُّ عملٍ يكونُ مرتكزاً على (الإفراط) لا بُدَّ أن تكونَ نتيجتُهُ (التفريط) أفراطُ الغربيونِ (الأغنياء) في نبذِ حقوقِ العمالِ والفقراءِ وراءَ ظهورهم ، فأفراطُ العمالِ في مناهضةِ أهلِ الثروةِ وغاصبيِ حقوقِ الأمة - بالمناصِبِ ومسبباتِ الجاه - فلا قاعدةَ دينيةَ يُرجعُ إليها ، ولا سلطانَ وازع - يعملُ بقهر - لصالحِ المجموع - لذلك أصبحَ أمرهم في الاشتراكيةِ (فوضى) ولسوفَ ينعكسُ أمرها .

(١) في تركيا وكان السيد جمال الدين مقياً حيثل في الآستانة .

الاشتراكية في الإسلام :

أمّا الاشتراكيةُ في الإسلام فهي ملتزمةٌ مع الدين الإسلامي ملتصقةٌ بخلقِ أهله منذ كانوا أهلَ بدَاوةٍ ، وجاهليةٍ .

فأولُّ من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابرُ الخلفاء من الصحابة ، وأعظمُ المحرّضين على العمل بالاشتراكية هم كذلك من أكابر الصحابةِ أيضا . أمّا أن الاشتراكية من خلق البدَاوة فالبرهانُ عليه ما كان من أهل الثراء منهم ومواساته لأهل قبيلته وعشيرته - ولا أعدتُ كثيراً من ذلك - بل أجترتُ بمن اشتهر منهم - مثل حاتم الطائي في السنين المجيدة

وهناك رجلٌ آخر من رجال العرب وهو (طلحة الطلحات) كان شأنه - أن كلَّ أعزلٍ مُعَدَمٍ يأتيه يقول له « دونك الفرسَ والرّمحَ والسيفَ فعمى أن تكتفى بها ذل السؤال ، وإن لم تفعل ولم تحسن العمل بها فلا أرشدك الله ولا أغناك »

ويقال إنه جهّز ألف فارس - وكان كلُّ فارسٍ ممّن جهّزهم طلحة إذا أتاه غلامٌ سماه طلحة ، وبذلك سُمي طلحة الطلحات .

هذا مثلٌ من الاشتراكية قبل الإسلام - ومنه يعلم أن الثروة كانت ولا تزال موجودةً في الأفراد ولكنَّ حُسْنِ استعمالِها ، وجَعَلِ نصيبٍ للآخرين فيها ، يجعلُ الاشتراكية أمراً مقبولاً وصفة ممدوحة . اذ لا أنانية ولا أثره .

أمّا ما عليه أهل الثروة اليوم الذي استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية وبعث عندهم روح الانتقام والإفراط في المطالبة بحقوقهم - وما يقابله من التقريط في زجرهم وعدم إعطائهم حقوقهم ، فسوف يتفاقم الخطبُ بسببه وتعم من جراء ذلك البلوى في الغرب ولا يسلمُ بها منها الشرق .

الاشتراكية في الإسلام :

أمّا الاشتراكيةُ في الإسلام - فهي خيرٌ كافلٍ لجعلها نافعةً مفيدةً ممكنةً الأخذُ بها ، لأنَّ الكتابَ الديني وهو (القرآن) أشار إليها بأدلّةٍ كثيرةٍ منها :

إنَّ المسلمَ أوَّلُ ما يقرأ من فاتحة الكتاب (الحمد لله ربَّ العالمين) فيعلم أن للخلق رباً واحداً ، وهو مع سائر الخلق من الربوبين على السواء .

ويرى ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب والغزاة ، ومن يتولى إمرتهم وقيادتهم فخطابهم أمراً ومعلماً ومدافعاً ومبيناً حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ، ليكون لهم من ذلك الجهاد وتلك المساعي نصيباً ، إذ قال :

« واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل — إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » .

هذه آية باهرة ، أوجبت على من يسعى مجاهداً ، ومخاطراً بحياته أن يكون مشتركاً معه في نتيجة غزواته وغنائمه — من لم يكن مشتركاً فعلاً ، فأعطى أولاً (الله) تعالى نصيباً ومرجع ذلك النصيب لعباده .

وثانياً : للرسول — وثالثاً ، لذوي القربى — وهم لا شك من المستضعفين الذين إنما قعدوا عن الاشتراك في الجهاد والسعى وراء الغنائم لعلل تختلف أشكالها وأنواعها ، ولكن الذين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيباً من مساعي أولئك الأشداء الأقوياء المجاهدين — وعطف على من دونهم في المرتبة الثانية ممن ليس لهم في المجاهدين أقرباء فقال (واليتامى) ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال (والمساكين) ثم رأى أن يأخذ نطاقاً أوسع فقال (وابن السبيل) أى عابره فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلاً ولا أنفع :

كل ذلك نراه مبيناً على حكمة الاشتراك — ولبت حكم هذه الآية جارياً ، وكان الرضا به شاملاً لمجموع المسلمين من مجاهدين أو قاعدين عن الجهاد .

ثم جاء في موضع آخر من الكتاب (القرآن) مقرعاً لمن يكتزون الذهب

والفضّة - ثم حبد وأنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف والإطعام ولو كان بهم خصاصة .

وهكذا نرى قانون الاشتراكية المقول في آيات القرآن ترى . . .

وبعد أن بين السيد أمر المؤاخاة التي عقدها النبي بين المهاجرين من مكة بعد أن تركوا أموالهم ، والأنصار من المدينة الذين شاركوا المهاجرين فيما يملكون قال :

ولو تطلّع الإنسانُ منا اليوم وأشرفَ على تلك الأرواح الطاهرة - لرأى من مجالى الاشتراك روحاً وجسداً - ما ينبهرُ له عقله ، ولصح اعتقاده أن عملَ الدين وتأثيره في تلطيف الكثافة الجسمانية لا يضارِعُه مؤثر ، أو عاملٌ آخر على البشرية ، ولرجعوا إليه لو كانوا يعقلون .

ثم قال : لما كان مذهبُ الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادئ - له طرفان (وخير الأمور أوساطها) رأى الشارعُ الأعظمُ أن تنعّمَ فريقٍ من قوم ، وشقاءَ فريقٍ آخر في محيط واحد - مما لا يتمُّ به نظامُ الاجتماع - وكان النبي (ص) بالمؤمنين رحيمًا ، فجاءه عن طريقِ الوحي - وهو نتيجةٌ تمحيصِ نزعاتِ النفس البشرية ، وما عمى أن ينجم من المضارِّ أو المنافع لها - من أجل ذلك وضع للدين أركانًا خمسة - ومن تلك الأركان : فرض الزكاة في المال والركاز^(١) والأنعام إلخ .

ثم أضاف إليها - كما سبق - « غنائم الحرب » فأخذ منها بمقدار الخمس .
ثم بعد ذلك حرّض على بدّلِ الصدقات .

وما قاله السيد في الربا - وأنه يصح إباحتها الربا المقبول إذا اقتضت المصلحة :

وحرّمَ (الربا) بنكته غاية في الحكمة (أن لا يؤكل الربا أضعافًا مضاعفة) وهو ما وقع عليه التحريم - ولكي يكون للإمام مخرج إذا اقتضت

المصلحة بالتسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذي لا يتقل كاهل المدين ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ، ويصير أضعافاً مضاعفة .

وفرق صراحة بين احتيال المرابين المتلبسين بالدين - الذين يتظاهرون بالتجنب عن الربا يبيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مئة درهم فيجرون عقد يبيعها مع المشتري المضطرّ بثلاثمئة درهم - وحقيقة هذا الفرق إن هو إلا نصيب الربا وعينه - وإنما يجعلونه عن طريق البيع ، ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلّصوا من ارتكاب جريمة (الربا) التي حظرها عليهم الدين .

ولإليك بعض ما جاء بهذا الشأن في القرآن (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس - ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ، فن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون - يحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم .

وقال « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

أمّا ما جاء في الحديث على الصدقات فكثير : كقوله تعالى « إن تبندوا الصدقات فنعما هي » وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير » .

وقال « إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله » .

وقال : « إن الحسنات يذهبن السيئات » وأمثال ذلك كثير في الكتاب والحديث - حثاً وتحريضاً على البذل ومؤاساة الفقراء وأهل العوز .

علم الثروة

وإذا نظرنا إلى علم الثروة رأينا أن كثيراً من المتأخرين قد ادّعوا وضع قواعد الكلية ونوّهوا بذكر أفرادهم لبراعتهم في فن الثروة ومن أعظم تلك القواعد -

وجوبُ جباية العشر وقت الحصاد ، وما ينطوي تحت ذلك من أموالٍ يؤخذ عنها (رسوم) عند وجودها ، وأن من فوائد ذلك سهولة أداء الزارع ما عليه من الحق في وقت الحصاد .

فترى أن القرآن قد سبق أولئك العلماء في فن الثروة وجاء بذلك القاعدة في قوله :

وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغيرَ معروشاتٍ والنخل والزرع مختلفاً أكله، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهه - كلوا من ثمره إذا أثمر - وآتوا حقه يوم حصاده^(١)

وهكذا ترى في القرآن - إماً إشارات إلى كليات العلوم وقواعدها - وإماً بصراحة .

الزواج - ومساواة المرأة بالرجل

والحجاب والسفور

عاش السيد طواك حياته عزياً لم يقتنر بامرأة وكان كلما اشتكى أحد من كثرة العيال وقلة ذات اليد، يعينه بقدر ما يستطيع ويقول : له : قل : وأثقلت ظهري بالذي خف من ظهري وكان السلطان عبد الحميد يريد أن يربط السيد بالزوجة والأولاد فعرض عليه جارية حسنة من نساء قصر يلدز^(٢)، ليتأهل بها فامتنع السيد وأبى ولما قيل له : إنك إذا تحب تأييد مذهب أبي العلاء حيث يقول :

هذا جناه أبي علي وما جنيت علي أحد

قال :

كلاً ، ولا أعتقدُ أن مثلَ هذا القول يصحُّ أن يعزى إلى حكيمٍ مثل أبي العلاء ، لأنه يتنافى الحكمة ، ولا أن يتخذ حجّةً أو قدوة .

(١) وقال تعالى « وى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وهذا يعم كل أصناف المال .

عمود أبو ربه

(٢) يلدز هو قصر السلطان عبد الحميد .

إذ كيف يصحُّ لعاقل أن يعتبرَ التأهل - والازدواج جنائية - وإن قيل إنه جنائية معنوية في بعض نتائجها كيف يصحُّ لولدٍ صارَ حكيماً مثلَ المعري ولولا علة وجوده ، وهو ازدواج أبيه لما برز من العدم ، أن يلصق الجنائية بأبيه خلافاً لكل عقلٍ ونقلٍ .

ومن ينكر أن بقاء النوع واستكمالَ حكمةِ العمران - ما كان ولن يكون إلاً بالتناسل والتزاوج .

حكمة الزواج وشرطه :

أمّا حكمة الزواج وشرطه ، فقد جاءَ في القرآنِ على أوضح وجهٍ وأصرَح بيان ، إذ قيّدَ من خاف أن لا يعدل (بالمرأة الواحدة) - وترك لمن يخشى أن لا يعدل حتى مع الواحدة - عدمَ الزواج ، وهذا ما يستنتجه العقلُ ما دام يحمله العاقل ويقولُ به الحقُّ والعدلُ .

سبب عزوفه عن الزواج :

أمّا أنا فعرفتني بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معاني العدل ، وعجزتني عن القيام بأمره - دفعني أن أتقى عدمَ العدلِ ببقائى عزباً من أن أتأهل وأكون ظالماً »

فقال له طبيب موسى :

فهل تفادياً من الخوف من عدم العدل يجوز أن يخالف الإنسان طبيعته ؟
فتبسم السيد وقال له :

إنَّ الطبيعةَ أحكمُّ منك! فهي تدبّر نفسها ومن ترك شيئاً عاشَ بدونه .
ولمّا قيل له : لم لم تقبل أن يعطيك السلطان جاريةً حسناء لتزوّجها قال :
أمّا الزواجُ بالبخاريةِ الحسنة فما أنا بالكفء لها ، ولستُ بوليّها لأتحرى لها كفوّاً .

فقيل له :

لو فرضنا أنك قبلت تكليف السلطان واقتزنت بامرأةٍ فها هي الخطة التي كنت ترسمها لقرينتك وما رأيك في مساواة المرأة بالرجل ! قال :

مساواة المرأة بالرجل - والحجاب وهتكه :

إنه ليسرني إذ صار فرضكم في أمر زواجي (نقلاً) أو في حقيقته لغواً
وتخلصت من الخطة والخطط والخطوط ! !

أمّا أمرُ مساواة المرأة بالرجل ، والحجاب وهتكه ، وحقوق المرأة إلخ فقد
قرّعتُ آذاني مراراً ، وقرأتُ في هذا الموضوعِ مقالاتٍ ورسائلٍ ! ولكن لا أكتسبُ
أنّني لم أعشُرُ في كلِّ ذلك على مقالٍ صريحٍ ، أو تحديدٍ لمطلبِ المساواة
أو على بيانِ الغايةِ من هتكِ الحجاب ، أو الفائدةِ التي ترتبُ عليه ، أو
تأتي من ورائه .

ولا أظنُّ أنَّ ضجيجَ بعضِ الناشئةِ في الشرق ، والمتفرجين منهم يقصدون
بطلبهم - مساواة المرأة مع الرجل - في التكوين ، ذلك لأنه ممتنعٌ بل مستحيل .
فإذا صحَّ هذا الامتناعُ من هذه الوجهة ، فلا مناصَّ من أن تبقي المرأةُ
- كما هي امرأة - تكويناً والرجُل رجلاً .

وأما إذا قصدوا المساواة من حيثُ المواهبُ الفطريّة - فهذا أثرُ الاكتساب
فيه ضعيفٌ - فالشاعرُ والشاعرة ، إذا كان في فطرتهما حسنُ التصوُّر ، وسعةُ الخيال
مع صفاءٍ في السليقة - برعا في الشعر .

وإن لم يكونا كذلك - وانصرفا إلى أوزانِ الخليلِ تَعَلُّماً واكتساباً من
فاعلاتٍ فاعلاتٍ وفاعلٍ ومفعولٍ - فلا يخرجان إلاً وازناً ووازنة !

أمّا ما بقي من العلوم التي تحصل للإنسان بالتعلُّم على نسبٍ مختلفةٍ بحسبِ
القابليةِ الفطريةِ ، من طبٍّ وهندسةٍ وفلاحةٍ وصناعةٍ إلخ - ففي انهماكِ المرأةِ
ودخولها معتركِ هذه الصناعاتِ نظر .

المجتمع الإنساني يقوم على دعامتين : المرأة والرجل :

فالمجتمعُ الإنساني إنَّما قامَ على دعامتين أو يقومُ بالمجتمعِ عاملان :
المرأةُ ، والرجُل .

فلنأخذ الرَّجُلَ ونبحث في تكوينه ، وخلقته وتركيبه فترى في أعضائه وجوده ما ليس في المرأة ولا حاجة إلى التفصيل ، والرجوع إلى علم التشريح - وكذلك في المرأة وتكوينها ما ليس في الرَّجُل .

وفي كلا التكوينين من ناقصٍ وزائدٍ ، لا يُعَدُّ بالنظر إلى الفطرة لانقصاصاً ولا كمالاً ، لأن الطبيعة أحكمت صنْعها في ذلك ، وأجادت في تكوينها - فتبارك الله أحسن الخالقين .

بُرْشِدُنَا ذلك التباين في تكوين العاملين إلى وجوب اختلاف عملهما بما لبيهما من مُعَدَّات وآلات التكوين - ليتم من ورأهما عملٌ صحيح في النتيجة وبناء مستجمع لوازمه .

وإذا أخذنا ما يحترفه الإنسان من الصناعات ، وما يتوخَّاه من ورأها ، فلانزاه يخرج من كل ما يتحمَّله من مَضَضِ التعلُّم ، ومزاولة العمل عن كسب القوت له ولعِياله - ولا يقالُ عائلة: إلا إذا شكَّلت من رجل وزوجة وأولاد.

وبديهي أن أبسط أنواع القوت وهو الخبز - يحتاج لبصير خبيراً إلى عشرات العمال منهم من يعالج الأرض بالحرث لتصلح لبذر القمح ، وأبقار ، وسائس ، ومُساس ، ويلزم له الحدّ أدواً والحدّ أد يلزمه أعوان ، وطحنة وطاحن الخ حتى يصير دقيقاً فتعجنه المرأة وتخبزه في التنُّور أو يخبزه الفرن - فإذا شاركت المرأة الرَّجُلَ في الصناعات (وهي لا تكونُ في ذلك إلا خارج البيت) فن يُلدِرُ أو يدبرُ مملكة البيت ؟ ومن يرَبِّي الطفل ؟ ومن يخطُّ في لوحه الصقيل رسوم الشجاعة والفضيلة والإقدام ؟ غير المرأة ! ومن يرَبِّي الأقبال في أخلاقهم غير تلك الملكة وهي المرأة ! اللهم إذا أردت أن تبقى ملكة ! لا أن تبقى ملكة وملكا في آنٍ واحد .

ليس من يحطّ من قدرِ المرأة ويمتهنُ خلقها ويدهورها لدركاتِ الابتذال إلا ذلك الذي يُغْرِبها على ترك مملكته وبيته ، وأن تزامم الرجل في شقائه

بجانب العيش - الذى لو فرضنا أنها أفادت بعض الفائدة المادية فيه ، وعاونت به - لاشك أن الخسارة تكون من وراء تركها المنزل وتدبيره والطفل وتربيته ، أعظم بكثير من تلك المنفعة التى لا تُبقي على الأخلاق ، ولا تفسد إلاّ الإنساب والأعراف .

السفور :

أمّا رفعُ الحجاب فما رأيتُ لمن قال بلزومه ، وخطبَ فيه أو كتب - أنه ذكر أقلّ نفع له أو فائدة تأتي من ذاته أو من ورائه .

والذى أراه - أن الحجاب ستارٌ إذا رُفِعَ طفرةٌ وفجأةً إنما يظهر على الغالب من تحته شناعاتُ الخلاعةِ والتبرُّحِ واستهوانُ الفجورِ وعدمُ المبالاةِ بالرقابةِ العامةِ .

ولو اقتصرَ النساءُ على الاكتفاءِ بالسفورِ - ولم يتخذ مطيةً للفجور لما كان

في الأمر ما يحتاج لأخذ ورد - ولكن إذا رأينا للسفور متممات لا تتم إلا في
خارج البيت ، فهناك الطامة ، وفواجعُ الطفرة ، واختلالُ التوازن في أعمال
الشريكين . .

باب الاجتهاد

عرف السيد جمال الدين بأنه كان يتفرغاً شديداً من التقليد الاعمى الذى اتبعه المتأخرون ، وكان من الذين (يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ويأخذ بالصحيح من الأقوال وما هو أقرب إلى الحق وما يسيئه العقل ، وكان ينبذ الضعيف من الأقوال مهما صححوه بأسانيدهم .
ذكروا يوماً في مجلسه قولاً للقاضى عياض ، واتخذوه حجة ، واشتد تمسكهم بذلك القول حتى كادوا ينزلوه منزلة الوحي . . فقال جمال الدين :

يا سُبْحَانَ اللَّهِ : إنَّ القاضى عياض قالَ ما قاله على قدر ما وسعته عَقْلُهُ ، وتناولَه فَهْمُهُ وناسبَ زمانَه - فهل لا يحق لغيره أن يقولَ ما هو أقرب إلى الحق وأوجه ، وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الأئمة ؟

وهل يجب الجمودُ والوقوفُ عند أقوالِ أناسٍ (هم أنفسهم لم يفقوا عند حدِّ أقوال من تقدّمهم) فقد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا ، وأدلّوا دلوهم في الدلاء في ذلك البحر المحيط من العلم ، وأتوا بما ناسبَ زمانهم ، وتقارب مع عقولِ جيلهم - وتتبدلُ الأحكامُ بتبدلِ الزمان .

ولما قيل له : إن ذلك يحتاج إلى الاجتهاد ، وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعدّر شروطه ! تنفّس الصعداء وقال :

ما معنى باب الاجتهادِ مسدود، وبأى نصٍ سدّ بابُ الاجتهاد؟ أو أرى إمام قال : لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه في الدين ؟ أو أن يهتدى بهدى القرآنِ وصحيحِ الحديث ، أو أن يجدّ ويجتهد لتوسيع مفهومه منها والاستنتاج بالقياس على ما ينطبقُ على العلومِ المصرية وحاجياتُ الزمان وأحكامه ، ولا ينافي جوهرَ النصِّ !

إن الله بعثَ محمدًا رسولاً بلسانِ قومه (العربي) ليُفهّمهم ما يريدُ إفهامهم ، وليفهموا منه ما يقوله لهم « وما أرسلنا من رسول إلا بلسانِ قومه » وقال : « إنّنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون » وفي مكان آخر « إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون » .

فالقرآن ما أنزل إلا ليُفهّم - ولكي يعمل الإنسان بعقله لتدبّر معانيه ، وفهم أحكامه والمراد منها .

فمن كان عالماً باللسانِ العربيِّ وعاقلاً غيرَ مجنون ، وعارفاً بسيرة السلف وما كان من طرق الإجماع - وما كان من الأحكام مطبقاً على النصِّ مباشرة ، أو على وجه القياس وصحيح الحديث جاز له النظرُ في أحكام القرآن وتعمُّنها ، والتدقيق فيها ، واستنباط الأحكام منها ، ومن صحيح الحديث والقياس .

ثم قال : « لا أرتابُ في أنه لو فسّحَ في أجلِّ أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وعاشوا إلى اليوم - لداموا مجدّين مجتهدين ، يستنبطون لكلِّ قضية حكماً من القرآن والحديث والقياس - وكلّما زاد تعمُّقهم وتعمُّنهم ازدادوا فهماً وتدقيقاً .

نعم إن أولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا (جزاهم الله عن الأمة خيراً) ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، أو تمكنوا من تدوينها في كتبهم - والحقيقة أنهم - مع ما وصلنا من علمهم الباهر وتحقيقاتهم واجتهادهم - إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم ، والحديث الصحيح من السنن ، والتوضيح ، إلا كقطرة من بحر ، أو ثانية من دهر ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده - وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

اجتهاده في اللغة

عرف من رأى السيد جمال الدين : أنه يجوز استعمال الدخيل ، واللفظ الأجنبي في الكلام العربي ، حتى روى عنه أنه قال :

إذا أردتم استعمال كلمة غير عربية فاعلموا أن تلبسوها كوفية وعقالاً فتصبح عربية - وقد كنى بالكوفية والعقال عن التعريب .

ومن أشهر آراء السيد جمال الدين التي تتعلق بأبحاث اللغة ما رواه الأستاذ اللغوي الشيخ عبد الله البستاني من أن السيد قال في هجو بعض البلغاء : هذا رجل من نسل البقرت ! فعابوا عليه استعمال كلمة (البقرت) فأجابهم ، ألا نقولون : جببروت و رهبوت و ماسكوت ؟ فاعترضوا عليه بأن البقرت لم ترد في كلام العرب ، فقال ، وهل تريدون أن أنكر نفسي . وعلق الأستاذ البستاني على ما قاله الأفغانى مستحسنًا .

وروى المخزومي باشا في الحلاطرات أن عبارة السيد ، هي (سياسة بقرتية في مملكة فرعونية) ولما اعترضوا عليه أجاب : كيف يصح قولهم ملكوت و جبروت ! هكذا يصح عندي بقرت .

ضرر المقلدين !

عَلَّمْتَنَا التَّجَارِبَ ، وَنَطَقْتَ بِمَوَاضِي الْحَوَادِثِ بِأَنَّ الْمَقْلِدِينَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، الْمُتَحَلِّينَ أَطْوَارَ غَيْرِهَا ، يَكُونُونَ فِيهَا مُنَافِذَ وَكُؤُوبَ لِمَطْرُقِ الْأَعْدَاءِ إِلَيْهَا ، وَتَكُونُ مَدَارِكُهُمْ مَهَابِطَ الْوَسَاوِسِ ، وَمَخَازِنَ الدَّمَانِيسِ ، بَلْ يَكُونُونَ بِمَا أَفْعَمْتَ أَفْنَدْتُهُمْ مِنْ تَعْظِيمِ الَّذِينَ قَلَّدُوهُمْ ، وَاحْتِقَارِ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى مِثَالِهِمْ ، شَوْمًا عَلَى أَبْنَاءِ مِائَتِهِمْ يَذَلُّونَهُمْ وَيَحْقِرُونَ أَمْرَهُمْ ، وَيَسْتَهِينُونَ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ وَإِنْ جَلَّتْ ، وَإِنْ بَقِيَ فِي بَعْضِ رِجَالِ الْأُمَّةِ شَيْءٌ مِنَ الشَّمْسِمِ ، أَوْ نَزْوَعٌ إِلَى مَعَالَى الْهِمَمِ ، انْصَبُوا عَلَيْهِ وَأَرْغَمُوا مِنْ أَنْفِهِ ، حَتَّى يَمْحَى أَثَرُ الشَّهَامَةِ ، وَتَخْمَدُ حَرَارَةُ الْغَيْبَةِ ، وَيَصِيرُ أَوْلَئِكَ الْمَقْلِدُونَ طَلَائِعَ لِحَيُوشِ الْغَالِبِينَ وَأَرْبَابَ الْغَارَاتِ ، يَمْهَدُونَ لَهُمُ السَّبِيلَ وَيَفْتَحُونَ الْأَبْوَابَ ، ثُمَّ يَثْبُتُونَ أَقْدَامَهُمْ ، وَيَمَكُونُ سُلْطَتَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ فَضْلًا لغيرِهِمْ ، وَلَا يَظُنُّونَ أَنَّ قُوَّةَ تَغَالِبِ قَوَاهِمِ .

سعادة الأمم

قال السيد جمال الدين : إن الأمور التي تم بها سعادة الأمم هي :

الأول : صفاء العقول من كدَرِ الخُرَافَاتِ ؟ وَصَدَأِ الْأَوْهَامِ ، فَإِنَّ عَقِيدَةَ وَهْمِيَّةٍ لَوْ تَدَنَسَ بِهَا الْعَقْلُ لِقَامَتْ حِجَابًا كَثِيفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَقِيقَةِ الْوَاقِعِ . وَيَمْنَعُهُ مِنْ كَشْفِ نَفْسِ الْأَمْرِ - بَلْ إِنْ خُرُفَاتٌ قَدْ تَقَفُ بِالْعَقْلِ عَنِ الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ ، وَتَدْعُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَحْمِلَ الْمِثْلَ عَلَى مِثْلِهِ فَيَسْهَلُ عَلَيْهِ قَبُولُ كُلِّ وَهْمٍ ، وَتَصْدِيقُ كُلِّ ظَنٍّ - وَهَذَا مِمَّا يُوْجِبُ بَعْدَهُ عَنِ الْكَمَالِ ، وَيَضْرِبُ لَهُ دُونَ الْحَقَائِقِ سِتْرًا لَا يُخْرِقُ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ مَا تَجَلَّبَبُهُ الْأَوْهَامُ عَلَى النُّفُوسِ مِنَ الْوَحْشَةِ ، وَقَرَبِ الدَّهْشَةِ ، وَالْخَوْفِ مِمَّا لَا يُخْفِي ، وَالْفِرْعِ مِمَّا لَا يُفْتَزِعُ . . . وَهَذَا يَسْجَلُ عَلَيْهِ الْحَرَمَانُ مِنْ أَغْلَبِ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ ، ثُمَّ يَكُونُ الْعُوبَةُ فِي أَيْدِي الْمُحْتَالِينَ وَصِيدَا فِي حِبَائِلِ الْمَاكِرِينَ وَالذَّجَّالِينَ .

وأول ركن بُنِيَ عَلَيْهِ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ - صَقْلُ الْعُقُولِ بِصَقَالِ التَّوْحِيدِ

وتطهيرها من لوث الأوهام — فن أهم أصوله — الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان، متوحد في خلق الفواعل والأفعال — وأن من الواجب طرح كل ظن في إنسان أو جماد ، علويًا كان أو سُفليًا — بأن له في الكون أثرًا بنفع أو ضرر ، أو إعطاء أو منع ، أو إعزاز أو إذلال .

الأمر الثاني : أن تكون نفوسُ الأمم مستقبلةً وجهةَ الشرف ، طامحةً إلى بلوغ الغاية منه ، بأن يجد كلُّ واحد من نفسه أنه لائقٌ بأية مرتبةٍ من مراتب الكمال الإنساني ما عدا رتبة النبوة فإنها بمنعزلٍ عن المطمع وإنما يختص الله بها من شاء من عباده .

ولا يذهبُ وهمُّ أحدٍ من الأمة إلى أنه ناقصُ الفطرة ، منحطُ المنزلة فاقدُ الاستعداد لشيءٍ من الكمالات ، فإذا أخذت نفوسُ الناسِ حظها من هذه الصفة — أعنى الإقبال على وجوه الشرف — تسابقَ كلُّ مع الآخر في مجالات الفضائل وتمادت بهم المجارةُ إلى محاسن الأعمال ، فتبلغ كلُّ واحد ما أتى عليه سعيه من عاليات الأمور ، وشرائف المراتب .

ولو أن قومًا أساءوا الظن بأنفسهم ، واعتقدوا ، أن نصيبهم من الفطرة نقصُ الاستعداد ، وخسةُ المنزلة ، وأن لا سبيلَ لهم إلى الوقوف في مصاف غيرهم من طبقات الناس — فلا ريبَ يسقط من همهم على مقدار ما ظنوا في أنفسهم ، وبذلك يتولى نقص أعمالهم ، ويملك الجمودُ عقولهم ، فيحرمون معظم الكمالات البشرية ، وينقطعون دون كثير من مقامات الشرف الدنيوية ، وتكون جولتهم في دائرة ضنكة ، محيطها دون ما ظنوا بأنفسهم .

إن دين الإسلام فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس ، وكشف لها عن غايته ، وأثبت لكل نفسٍ ، صريح الحق في أي فضيلة ، وأنبأ كل ذي نطق بوفرة استعداده لأي منزلٍ من منازل الكرامة ، ومحو امتياز الأجناس ، وتفاضل الأصناف — وقرر المزاي البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسى لا غير —
فالناسُ إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة . . .

ومن الأديانِ ما يغلبُ اليوم على أهم من البشر ومن أصوله تفضيل شعبٍ خاص على بقية الشعوب، كشعبِ إسرائيل مثلاً وكتابه المعروف يخاطبُ أبناء ذلك الشعب بالكرامة والإجلال ويذكر غيرهم بالتحقير والإهانة . .

الأمر الثالث : أن تكون عقائدُ الأمة : وهي أول رقم يُستَقَس في ألواح نفوسها - مبنيةً على البراهين القويمة ، والأدلة الصحيحة ، وأن تتحامي عقولُهم مطالعة الظنون في عقائدها ، وترفعُ عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها .

فإن معتقداً لاحث العقيدةُ في مخيلته بلا دليلٍ ولا حجة ، قد لا يكون موقناً ، فلا يكون مؤمناً .

هذا والآخذُ في عقائده بالظن ينصبُّ عقله على مُتَابَعَةِ الظنون، والقانع بأن آباءه كانوا على مثل عقيدته ، فأولى به أن يكونَ عليها ، يلتقي مع سابقه في مضاربِ الوهم ، وفِجَاجِ الظن - وأولئك المتبعون لظن (١) ، القانونون بالتقيد ، تقفُ بهم عقولُهم عندما تعودت إدراكه ، فلا يذهبون مذاهبَ الفكر ، ولا يسلكون طرائقَ النظر ، وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدرج ، ثم تكاثفت عليهم البلادةُ حتى تُعَطِّلَ عقولَهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرّة ، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر ، فيحيط بهم الشقاء ، ويتعرّض بهم للبحث ، وبئس المآلُ ما لهم ...

إن الدين الإسلامي يكاد يكون منفرداً من بين الأديان بتقريب المعتقدين بلا دليل ، وتوبيخ المتبعين للظنون ، وتبكيّ الخاطبين في عشواء العماية والقمندح في سيرتهم . هذا الدين يطالبُ المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم ، وكلما خاطب ، خاطب العقل ، وكلما حاكم ، حاكم العقل ، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة ، وأن الشقاء والضلالة ، من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة ، ويرفع أركان الحجّة لأصول من العقائد

(١) إن الظن لا يبنى من الحق شيئاً .

كل منها ينفع العامة، ويفيد الخاصة، وكلما جاء بحكم شرعيّ أتبعه ببيان الغاية منه في الأغلب (راجع القرآن الشريف).

الأمر الرابع: أن يكونَ في كلِّ أمةٍ طائفةٌ يختصُّ عملها بتعليمِ سائرِ الأمةِ، لا ينونَ في تنويرِ عقولهم بالمعارفِ الحقّةِ، وتحليتها بالعلومِ الضافيةِ، ولا يألون جهداً في تبينِ طُرُقِ السعادةِ لهم، والسلوكِ بهم في جوادها، ثم طائفةٌ أخرى تقومُ على النفوسِ، تتولّى تهذيبها، وتنقيفِ أودِها، وتكشفُ عن الأوصافِ الفاضلةِ وحدودها، وتمثّلِ للمداركِ فوائدها ومحاسنِ غاياتها، وتفضحُ مستورَ الرذائلِ، وتشقُّ الحجابَ عن مضارها، وسوءِ منقائبِ المتدنسين بها، وتشتدُّ في الأمرِ بالمعروفِ، والنهي عن المنكرِ، لا تلهها عنهما غفلة ولا تردها عنهما صعوبة.

وذلك أن بداهةَ العقلِ حاكمةٌ بأن جُلَّ المعارفِ البشريةِ، والعقائدِ الدينيةِ مكتسبةٌ، فإن لم يكن في الناسِ معلمٌ قصّرتِ العقولُ عن دركِ ما ينبغي لها دركُهُ، وانقطعت دونَ الكفايةِ مما يلزم لسدِّ ضروراتِ الحياةِ الأولى، والاستعداد لما يكون في الأخرى، وسأوى الإنسان في معيشته سائرِ الحيواناتِ وحرم سعادةِ الدارين، وفارق هذه الدنيا على أتمسِّ الأحوال! فإذا من الواجبِ الديني: إقامةُ معلمٍ.

والشهواتُ النفسيةُ ليس لها من ذاتها حدٌّ تقفُ عنده، ولا لرغائبِ الأنفسِ غاية تنقطعُ عندها، فإن فقد من بين الناسِ مُقَوِّمُ النفوسِ، ومُعدِّلُ الأخلاقِ طغى سلطانُ الشهوةِ، واندفع إلى الحيفِ والإجحافِ.

ومن طغى بهم شهواتهم سلبوا راحةَ غيرهم، وهتكوا سترَ أمتهم ثم هم لا ينفلتون من غائلةِ أعمالهم، بل يحترقون بنيرانِ شهواتهم، فيرافقون الدنيا على عنادٍ ويفارقونها إلى شقاء، فإذا لا بُدَّ من الأمرِ بالمعروفِ، الناهي عن المنكرِ، القائم بتقويمِ الأخلاقِ.

وإن من أهمِّ الأركانِ الدينيةِ في الديانةِ الإسلاميةِ هاتينِ الفريضتينِ:

« نصب المعلم ليؤدي عمل التعليم ، وإقامة المؤدب الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر » راجع القرآن الشريف « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منكم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم ، إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » وصواها آيات .
وقد برز دين الإسلام على غالب الأديان في العناية بهذين الأمرين .

وحيث كانت أركان الدين الإسلامى بالغة حدة الكثرة ، فلو أخذت في بيان ما يفيد كل ركن منها في تقويم المدنية ، وتشديد بناء النظام الإنسانى ، وإقامة الدليل على أن كل أصل من أصول هذا الدين عنصر حياة السعادة الإنسانية ، لخرجت عن القصد. فإن قال قائل — إن كانت الديانة الإسلامية على ما بينت فما بال المسلمين على ما نرى من الحال السيئة ، والشأن المحزن فجوابه :

سبب تأخر المسلمين :

إن المسلمين كانوا — كما كانوا ، وبلغوا بدينهم ما بلغوا ، والعالم يشهد بفضلهم .

وأكتفى الآن من القول بهذا النص الشريف :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

٤ — في سبيل الشرق أجمع

ركبوا الشطط :

نشر جبال الدين كثيراً من المقالات الإصلاحية في مجلة « العروة الوثقى » وإليك بعض ما جاء في فاتحة العدد الأول من هذه المجلة :

« ربنا عليك توكلتنا ، وإليك أنبنا وإليك المصير »

هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق وعلى الله المتكفل في نجاح العمل . .

بلغَ الإجحافُ بالشرقيين غايته ، ووَصَلَ العُدوانُ فيهم نهايته ، وأدركَ المتغلب منهم نكايته ، وخصوصاً في المسلمين منهم . فمنهم أعزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحوا حُقَرَاء ، وأغنياء أمسوا فقَرَاء ، وأصحاء أضحوا سقاما ، وأسود تحوَّلتُ نعاماً ولم تبقَ طبقةٌ من الطبقات إلاّ وقدمتها الضُرُّ من إفراطِ الطَّامعين في أطماعهم خصوصاً من جرّاء هذه الحوادث التي بذرت بذوردها في الأراضي المصرية من نحو خمس سنوات (١) بأيدي ذوى المطامع فيها .

حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه ، فدهشت عقولُها ، وشدُّوا عليها ما لا تألفه فخارت ألبابُها ، وألزموها ما ليسَ في قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكةِ الوازع تحت اسم العَدالة ليهيئوا باسم ذلك وسيلةً لتسبيل المطمَع ، فكانت الحركةُ العرابية العَشْواء فاتخذوها ذريعةً كانوا لها طالبين فاندفعَ بهم سيلُ المصاعب ، بل طوفانُ المصائب على تلك البلاد ، وظنُّوا بلوغ الأرب ، ولكن أخطأ الظنَّ وهو بما لم ينالوا . . .

لقد ركبوا الشَّطَطَ وغرَّهم ما وجدوا من تفرُّق الكلمة وتشتت الأهواء وهو أنفذ عوامِلهم وأقتلها ، وما علموا أنه وإن كان ذريعَ الفسْاك إلاّ أنه سريعُ العطب ، وما أسرع أن يتحوَّل عند اشتدادِ الخطُوبِ إلى عاملٍ وحْدَةٍ يسدِّد لقلوبِ المعتدين . .

من صحبحات جمال الدين لإيقاظ الأمم الشرقية

كانت أول صحبحات السيد جمال الدين التي أرسلها لإيقاظ الشرق بعد أن فارق بلاده في شبابه - هي تلك الصحيفة التي أزعج بها أهل الهند عند ما ألم ببلادهم في طريقه إلى بلاد الحجاز وغشى الإنجليز أن يوقد نار الثورة في هذه البلاد ، فأوعزوا إلى حكومة الهند بأن تأمره أن لا يطيل المكث فيها ، وأن يسارع إلى مفادرتها .

ولما رأى أن من حوله من الراجات والكبراء والعلماء ، لم يقابلوا هذا الأمر الظالم إلا بالبكاء ، التفت إليهم في غضب وصاح فيهم هذه الصحيفة المزعجة :

يا أهلَ الهند وعِزَّةَ الحقِّ ، وسرَّ العدلِ ، لو كنتم ، وأنتم تُعَدُّونَ بمئاتِ من الملايين « ذباباً » مع حاميتكم البريطانيين ، ومن استخدمتْهم من أبنائكم فحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم ، واستنفادِ ثروتكم - وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف! لو كنتم أنتم مئات الملايين كما قلتُ ذباباً !! لكان طينيتكم يُصمُّ آذانَ بريطانِيَا العظمى ويجعلُ في آذانِ كبيرهم مسرَّ غلادستون وقرأ .

ولو كنتم أنتم - مئات الملايين من الهنود - وقد مسخكم الله فجعلَ كلاً منكم سلحفاةً وخضتم البحر ، واحطتم بجزيرةِ بريطانِيَا العظمى لحررتموها إلى القمر ، وعدتم إلى هندكم أحراراً - ثم رفع صوته وقال :

« اعلموا أنَّ البكاءَ للنساء ، والسلطانَ محمود الغزنوي ما أتى إلى الهند باكياً بل أتى شاكاً للسلاح - ولا حياةَ لقوم لا يستقبلون الموتَ في سبيل الاستقلال بشعر باسم .

ومن صحبحاته لأهل الشرق جميعاً

قد ضللتكم عن رشدكم . . .

« إنكم قد ضللتكم عن رشدكم ، وتهتم في بيضاء غوايتكم ، وما يقوم لكم دليل في تقاعسكم عن الذود عن أوطانكم ، ولقد غلب عليكم الجبن ، واستولى عليكم الضعف ، واضعف جنانكم الخوف والحشية ، ألا ترون أن كل أمر

صعب عند الشروع فيه ؛ أفلا تشعرون أن صعوبة المسالك بمقدار عظم المقاصد ؟ وأن الراحة محفوفة بالمشاق ، وأن أفضل الأعمال أحزمها (١) ، أفترضون بالعبودية للأجانب والاستكانة للأباعد ، وإن موت المرء خير من بقاءه في هذه الدنيا مع قلة مدتها وسرعة زوالها ، وما لا يملك من الأمر شيئاً ! أظنون أن هذا التعلل يدفع عنكم غضب رب الجنود ؟ لا وحقه ، إنكم إن لم تدافعوا عن أوطانكم بنفوسكم وأموالكم لا تنالون منزلةً لديه ، ولا تجدون مخلصاً من سخطه ، وتبقون في ذل العبودية ، ما دامت الأرض باقية - وكل عذاب دونه لحقير - فمتشجعوا وثبتوا أقدامكم ، وسكنوا روعكم ، واعلموا أن الظفر مقرون بالصبر . وأيقنوا أن الراحة والسعادة في أثر المشقة ، وأن سنة الله قد جرت من الأزل ، أن لا ينال الإنسان مرغوبه إلا بعد التعب ، فلا تقدموا هذه الحجج الداحضة ، ولا تظهروا الفشل في طلب حقوقكم ، ولا تتسرباوا بالحبس ، فإن كل جبان محروم ، فاسعوا في اتفاق كلمتكم واجعلوا صدوركم ميجناً لسهام أعدائكم ، مجندين في خدائكم . واعلموا أن الأمم الغابرة والحاضرة (ما نكست) رقاها ، ولا كسرت أطواق العبودية إلا بتحمل المشاق والخوض في غمرات الموت .

أيها الأجداد الأجداد !

أين أنتم أيها الأجداد الأجداد ، القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الأمة ، ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم - وما أصاب أبنائكم ومن ينتحل نحلتمكم ؟

انحرفوا عن سنتكم ، وحادوا عن طريقتهم ، فضلوا عن سبيلكم ! استبدلوا كل رذيلة بفضيلة وأتوا على كل أمر لله بعكسه ، نبذوا حكمة الدين واتباع شرع سيّد المرسلين ، تفرقوا فِرَقاً وأشياعا ! أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الأكياد

(١) أحزم : الأعمال أمتها هـ . من القاموس زاد في شرحه : وقيل أمضا وأشقىا .

حزناً، أصبحوا فريسةً للأثم الغربية، لا يستطيعون ذوداً عن حوزهم ولا دفاعاً عن حوزتهم، ألا يصيح من برازخكم صائحٌ ينبهُ الغافل، ويوقظُ النَّائم ويهدى الضالَّ إلى سواء السبيل ! (إنا لله وإنا إليه راجعون) .

نعم - إن للأرواح إشرافاً بها كلها الروحانية ، على ما تلبسُ من الأجساد الترابية في هذه الدار الفانية ، ومناجاة لمن فيه ذلك الاستعداد - إذ الإمداد لا يكون إلاّ على قدر الاستعداد - فإذا أصغينا بالحسّ الروحي إلى ما نريد أن نتاجينا به أرواحُ أجدادنا^٢ - لوجدناهم يحرقون علينا الأرم ، ويزعجهم الأثم وينادونا :

أيها الأحفاد ؟ تفتخرون بسيفٍ لمعت بالشرق ! - نعم !

ولقد تركنا لكم تلك السيوف مشحودة في أغمادها - فهل تقلدتموها ؟ وهل سلبتموها في وجهٍ من اكتسح بلادكم ، وضرب عليكم الذلّة والمسكنة ! تفتخرون بما فتحنا وتركتناه لكم من الممالك ، وما تحملناه في سبيل ذلك من المخاطر والمهالك ولا تخجلون ! ولا تحزنون ! وقد سلبتها منكم الأعداء ، وأنتم في مقاعد جنبكم وذلكم تنظرون - ولا تتحركون ولا تهضون ، وحتى ولا تنطقون !

أيها النَّائمون يقظوا !

« ألا أيها النَّائمون تيقظوا ! ألا أيها الغافلون تنبّهوا ! يا أهل الشرف والناموس ويا أرباب المروءة والنخوة ، ويا أولى الغييرة الدينية والحمية الإسلامية ، ارفعوا رموسكم ترواً بلاءً منصباً على أوطانكم ، وما أنتم ببعيد منه ولا بمعزلٍ عنه ، إن لم يكن أصابكم اليوم فسيصيبكم غداً ! تساهتم في الذود عن حقوقكم المقدسة ، وطوتم عمّا أضمرت لكم الحكومةُ الإنجليزية من الإهانة والتذليل وصوم الخسف ، وتعلمتم بالأوهام ، فنتم أنفسكم وتربصتم واربتكم وغرّتمكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور ، أصبحتم على شفا جرف المدلة ويخشى أن يقذف بكم بعد قليل في جحيم العبودية .

ألا إن وقت التدارك ما فات فالأرواح في الأجساد والعقول في الرموس ،

والهم في النفوس ، وأقدام العدو في زلزل ، وشؤونه في ختلل ، فاثبتوا ولا تهنوا
ولا تحزنوا وأنتم الأعلسون إن كنتم مؤمنين ! ولا ترصوا بالدنية خوفاً من المنية ،
واعلموا أن ثباتاً قليلاً ، وإقداماً خفيفاً في هذا الوقت يفعل ما لا يفعله الجيش
المرمر . . .

فالثبات الثبات ، وحذار حذار من التواني والتقاعد — هذا وقت يتقرب
فيه المؤمنون إلى ربهم بأفضل عملٍ شرعي ، هذا وقت تنال فيه سيادة الدارين
للعامل فيه خير الدنيا وله في الآخرة الحسنى وزيادة —

هذا وقت تظهر فيه ثقة المؤمن بوعد ربه — هذا وقت يشكر فيه العامل على
بسيط الأرض ويحمد له عمله فوق سبع سموات — ألا إن الشيطان يخوف أوليائه ،
فلا تخافوا أعداءكم ولا تكونوا كالذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

داء الشرق ودواؤه

مثل السيد جمال عن دواء الشرق من عله فقال :

تطلبون الدواء ! والداء دفين في جسم الشرق وأبنائه ، مستحکم
منهم ، يمزّ ويتعذر على الحكيم النطاسي أن يصف الدواء الناجع أو الشافي
والواقى ، لاعتقاده أن المريض لا يتناولوه ، بل ربما يعمل بعكس ما يشير به
الطبيب اليوم — ولو علم ذلك المريض أن في الامتناع من الدواء (الموت
الزؤام) وهذه حالة الشرقيين في مختلف الأقاليم .

دواء سريع التأثير

لدى أهل الشرق دواء سريع التأثير في الشفاء ، لكنّه عظيم الخطر
مفرغ للجبناء منهم — وقد وصفه حكماء الشعر من العرب بقولهم :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم
بين طعن القننا وخفق البنود

لا يسلمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ من الأذى حتى يُرَاقَ على جوانبهِ الدَّمُ

هذا النوعُ من الدَّواءِ توارثهُ الغربيُّونَ وعملوا بكلِّ معانيه، فتسنَّى لهم به من العظمة والاستطالة والحكم في الشرقيين ما نراهُ محسوساً مشهوراً ، وبين أيدينا ومن خلفنا .

أمَّا الشرقيُّونَ - وقد وجدوا في هذا الدَّواءِ الشافي والواقى - مرارةٌ ومشقةٌ وقتيةٌ وعناءٌ فاطَّرَحُوهُ ، ونبذوه جانباً ، ورضوا من مجدٍ باذخٍ وملكٍ مسيطرٍ - (بعبيرٍ ووتدٍ !) قد لا يملكونهما اليومَ تمامَ الملكِ فحقَّ ! عليهم قولُ الشاعرِ :

ولا يُقِيمُ على ذُلِّ بُرَادُ بِهِ إِلَّا الأذْلَانُ عَيْرُ والحى الوتيدُ

إنَّ هذه الأنواعَ من المعالجاتِ في الشرقِ إذا كنتَ أرى منالها اليومَ بعيداً—وذلك لسقوطِ الهمِّ وخَوَرِ العزائمِ وتفرُّقِ الكلمةِ والاستسلامِ للخمولِ وبعدِ النفوسِ في معظمِ الشرقيينَ عن مرامى العِزَّةِ النفسيةِ وحرمانهم لذَّةَ ما تنبسطُ به الرُّوحُ عندِ نوالِ المنعةِ القوميةِ ، والحريَّةِ الحقيقيةِ - وما في عِزةِ الحاكمِ الفردِ من الخَوْلِ والطَّوَلِ بقوةِ مجموعتهِ (ولو كان صعلوكاً) على الجمهورِ المحكومِ -

ذلك الجمهورُ الشرقيُّ اليومَ المستكينُ للمهانةِ والخاضعُ للقوةِ الموهومةِ التي يتخيلها هولاءُ هائلًا ، أو غولاً " آ كلاً " « إنَّ الناسَ في الموتِ من خوفِ الموتِ - ومن الذلِّ من خوفِ الذلِّ !

ثم أخذ يصف الدَّواءَ فقال :

أمَّا وأنتم تطلبونَ دواءَ يسهلُ على الشرقيينَ تجرُّعَهُ فأقولُ :

تربية جيل جديد

بلى : نحتاجُ إلى عملِ جديدٍ نربي فيه جيلاً جديداً يعلمُ صحيحاً ، وفهم

جديد، لمعنى السلطانِ الأولِ على الأجسادِ والأرواحِ (وهو الدين) وجمع ماتشتت

من الكلمةِ من أهلِ الأديانِ وتوطيدِ العزمِ على قبولِ الموتِ في سبيلِ حياةِ

يقومُ بذلك جمعيات^(١) يتولَّى أمرَها أناسٌ يأخذون على أنفسهم الأبيَّةَ عهداً، أن لا يقرعوا باباً لسلطان، ولا يضعضهمُ الحدَّان، ولا يثني عزيمتهمُ الوعيد ولا يفرهم الوعد بالمنصب، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب - بل قوم يرون في المتاعب والمكاره في نجاة الوطن من الاستعباد - غاية المغنم - وفي عكسه - المفرم !

ولما سئل أين هؤلاء الناس؟ أجاب :

يقولون الحاجةُ أمُ الاختراع وقال المصطفى (ص) « اشتدَّتْ أزمَةُ تنفرجى » .

فالأزمةُ تلدُ الهمةَ - ولا رجاءَ من المستضعف إلا إذا يثس ، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق - ولا يظهرُ فضلُ الفجرِ إلا بعد الظلامِ الحالكِ !

أوشك فجر الشرق أن ينبثق :

وعلى ما أرى قد أوشكَ فجرُ الشرقِ أن ينبثق، فقد أدلّمتُ فيه ظلماتُ الخطوب ، وليسَ بعدَ هذا الضيقِ إلاَّ الفرج ، سُنَّة الله في خَلْقِهِ :

ومَهْمَا أظلمَ الخَطْبُ لا بُدَّ ينجلي

وأظلمتِ الدُّنيا فلا بُدَّ من فَجْرِ

نعم - لا بدُّ لذلك النسيم الذي حمل معه أجزاء فردية الحياة والنشاط والنهضة - ومَرَّ على أعرق الأمم في الجهل - ولما استنشقتَه هبَّت من رقادِها ودَوَّخت ممالك الأرض ، واستفتحتها ، وملأها عدلاً -

ذلك النسيمُ الذي جعل في العراقِ هاروناً ومأوناً ، وفي الشامِ والأندلسِ وسائر المشرق ، دولا ودهاقين ودُهاةً ، ومن فحولِ العلماء جهابذة وأساطين .

(١) كان السيد لا يثق في حكومات دهره ولا يمتدُّ أنها تعمل عملاً صالحاً .

أكرّر وأقول « نعم » لا بُدَّ لذلك النسيم بعد أن سرى عن تلك الممالك ،
 والباق فهبطت من مهاوى الذل ، وأصبح نشاطها خمولاً ، وعلمها جهلاً ،
 وملكها أثراً بعد عَيْنٍ - لا بُدَّ وأن يعيد الكرة ويمر على الشرق مرة أخرى ،
 فتنشط له العقول ، وتقوى به الزائم ، وينفتح لاستعادة المجدِ المجال ، وتظهر
 من زوايا الخمول فحول الرجال ، إن شاء الله (١) .

(١) ولقد تحققت هذه البشرية التي تنورها « جمال الدين من بين أستار الغيب بصيرته النافذة ،
 واستشفها بحمه الروحي ، فانبثق فجر الشرق بعد أن غاب عنه قروناً طويلة ، وعاد إليه النسيم الذي حمل
 الحياة والنهضة إلى الشرقى عصوره الزاهرة - فاستيقظ من غفلته ، ونشطت هم أهله وقويت عزيمتهم واستردوا
 حقوقهم من بين أنياب من كانوا قد اغتصبوه منهم . وأصبحت أمه بفضل يقظتهم بين سائر الأمم
 محررة عزيزة - وقد كان انبثاق نور هذا الفجر من أفق مصر ثم لم يلبث هذا النور الباهر أن استطار
 وانتشر حتى عم آفاق الشرق جميعاً .

وإن روح جمال الدين لتعرف اليوم في سبوات الشرق كلها مزهوة مسرورة - أن تحققت
 آمالها التي كان طوال حياته يجاهد في سبيلها .
 • تنور النار تبصرها .

المراجع

- جمال الدين الأفغانى : رسالة الرد على الدهريين
- جمال الدين الأفغانى : " العروة الوثقى "
- الإمام محمد عبده : " العروة الوثقى "
- تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده : محمد المخزومى
- خاطرات جمال الدين : لوثروب وتعليقات شكيب أرسلان
- حاضر العالم الإسلامى : تشارلز آدمس
- الإسلام والتجديد فى مصر : بلانت
- التاريخ السرى للاحتلال : عبد القادر المغربى
- جمال الدين الأفغانى : محمود أبو ريه
- جمال الدين الأفغانى : بروكلمان
- تاريخ الشعوب الإسلامىة : فيليب حتى وأدوارد جورجى
- تاريخ العرب المطول : وجبرائيل جبور
- عصر إسماعيل : عبد الرحمن الرافعى
- جريدة السياسة الأسبوعىة :